المقتطف ٧

الجزء الثالث من المجلد الثامن بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٦ ٢٦ ربيع اول سنة ١٣٦٥

التعليم ومراميه

كيف نفك الاغلال وننطلق في رحاب الحرية

نشرت في مقتطف يناير الماضي بحثاً في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية عنوانه « فك الأغلال » دار البحث فيـه حول أمرين جوهريين. أولهما: الغرض من التعليم: وانتهيت فيه الى أن الغرض من التعليم هو إخراج رجال مستقلين ونساء مستقلات في الحيـاة. وثانيهما: الطريق الذي يوصلنا الى هذه الغاية العليا، وانتهيت فيه الى أن اتصالنا بالثقافة التقليدية هو ذلك الطريق. قلت:

« عمد الأوربيون منذ عهد النهضة الأدبية الحديثة الى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسنادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا الى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسميـة في العلم وفي الأدب وفي الفن. فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لها مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهم وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص. ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلهـا بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً. بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلاً من أصول التثقيف العالي. فلم كان ذلك؟ ولأي من الأسباب

الجوهرية التي شعر بها الاوروبيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة ؟ انما ترجع كما قلنا الى أن الثقافة التقليدية هي الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون ملقحاً للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة احتفاظاً بالطابع الأصيل في الأمة ، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها ، وليكون في الوقت ذاته العدَّة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غيرَ الأصيلة ، وتكييفها تكييفاً يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها . وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل اتبعنا في نهضتنا هذه السبيل القويمة ؟ وهل كفل لنا التعليم الوصول الى هذه الغايات العليا ؟ »

***

انتهيت من ذلك الى القول بأن التعليم لم يكفل لنا شيئاً من هذا — « وأقصد به التعليم بناحيتيه : الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغةً وديناً ، وأعني بها الأزهر ، فانه لم يلقح بشيء من الأساليب الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة ، وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة : أي الثقافة الاوربية . وأعني بها ناحية التعليم الزمني ، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية ، لتكون معملاً حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ويخرج منه مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة. ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل ، ومثل التعليم الزمنيّ كمثل كائن حي أكل ولم يهضم : فناحية جائعة ، وناحية متخومة » .

وظاهر من هذا الاتجاه أن وجهتي في القول بالثقافة التقليدية ووجوب اتخاذها أساساً لفلسفة التعليم في مصر ، تسمو على البحث في التفاصيل ، وتسمو على البحوث التي يجري عليها الرأي في اصلاح التعليم في وزارة المعارف أو غيرها من الجهات التي تعني بالكلام والبحث في التعليم .

الناحية التي تكلمت فيها في « فك الأغلال » هي الناحية الثقافية من التعليم ، الناحية التي تنظر الى الغرض الأعلى من التعليم ، وكيف ينبغي أن يكون أسلوب التعليم ليتصل بمنافعنا الدنيوية والفكرية . لا يهمني بعد الاخذ بالاصول التي تقوم عليها هذه الفكرة ، أن

يكون التعليم في رحلة منه مقسماً درجة أو درجتين أو عشرين درجة . وإنما الذي يهمني أن تسري روح هذه الفكرة الفلسفية في مدارج التعليم جميعاً .

الفكرة التي بثثتها في فك الأغلال لا تعني بالتعليم العام وكيف يجب أن يكون من الناحية العملية . ولا تتصل بفكرة تعليم الشعب جميعه أو الاقتصار على نسبة معينة منه . إنما هي تعني بما يجب أن يكون عليه نهج التعليم موجهاً وجهة تقليدية صرفة ، تصلنا بأبعد الماضي كما تصلنا ببرهة الحاضر . هي تعني بالفلسفة العليا التي تتجه بالفكر الى غاية سامية هي اخراج ذوات عاقلة حرة مستقلة تعرف أن ماضيها أساس مستقبلها ، وتخلق فيهم القدرة على تمثيل ما تتلقى من مختلف الثقافات .

من الأشياء التي تقع في نفسي موقع الفكاهة ، بل انه مما يجب أن يتندر به، قول البعض أن فلاناً ثقافته سكسونية وفلاناً ثقافته لاتينية ، وغيرهما ثقافته المانية أو روسية . شيء يثير الضحك ويثير البكاء معاً ، وأين الانسان الذي ثقافته مصرية ؟ فتش عنه إذن بمصباح ديوجينيس !

معنى هذا أن فلاناً سكسوني الثقافة أنه انجليزي في إهابٍ مصري ! ومعنى أن فلاناً فرنسي الثقافة انه لاتيني في جلد مصري ! وأين فلان المصري ؟ لقد ذهب ولا شك مع الريح . ريح الاستعمار الذي وضع لنا أسس التعليم ولا نزال نجري على روحها ، ننظمها من ناحية ، ونحوّر فيها من ناحية أخرى، من غير أن نعمل ساعة واحدة على ازهاق تلك الروح الخبيثة ، التي ساقتنا أمامها حتى بلغ بنا الجهد هذا المبلغ الذي يشعرنا بأننا على أبواب مشكلة، هي ولا شك مشكلة المستقبل القريب .

***

كيف السبيل الى خلق المصري" الذي يشعر بأن له ذلك الماضي المتصل بعصر الفرعونية ، ومصر العربية، القادر على أن يخلق مما يتلقى عن ماضيه وتقاليده تصوراً جديداً يجعله من أبناء القرن العشرين ؟ ذلك هو الغرض الذي رميت اليه في بحثي الذي أشرت اليه .

الطبقة غير المتعلمة وبخاصة طبقة الفلاح ، هي الطبقة المتصلة بثقافة مصر التقليدية. ثقافة تلقاها الفلاّح بالتوارث . ولكنها على تفاهتها ثقافة أخرجت لنا الرجال المستقلين . أخرجت

الفلاّح الذي هو فقار مصر. أخرجته رجلاً مستقلاً منتجاً أضعاف ما يستهلك. فهو قوة عاملة مستقلة حرّة منتجة.

والطبقة المتعلمة ماذا أخرجت لنا بتعليمها ؟ أخرجت لنا موظف الحكومة المتواكل على مرتبه ، وأخرجت لنا المتعطل ، وأخرجت لنا رجل المقهى ، وأخرجت لنا الأفاك والمستهتر.

ولكن ما السبب في هذا ؟

« السبب في كل هذا أننا بعدنا عن ثقافتنا التقليدية ، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي ، وهمنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً يسلك ، لا الى الأمام لنصير أوربيين صرفاً ، ولا الى الوراء لنعود الى مصريتنا مرّة أخرى . وإذن فنحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييماً صحيحاً . وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أنّ ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها نكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي من الحيوان . فيه تهضم الآداب الأخرى ثم تمثل أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتفسده . لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها الى خارج جسمه المهدّم الضئيل » (١) .

***

إذا أردنا أن نحيي المصرية الصحيحة ، فلابدّ لنا أولاً من الاتصال بثقافتنا التقليدية ، ثقافة مصر ، وثقافة العرب ، فنهما ميراثنا . وكل تعليم لا يقوم على هذا الأساس بعيد أن يخرج لنا الرجل المستقل الحر المنتج .

اذا أردنا أن يكون للتعليم غاية ، فلنعمل على اخراج الرجل المستقل والمرأة المستقلة .

ولكن أين هما الآن ؟ فتش عنهما بمصباح ديوجنيس .

اسماعيل مظهر

---

(١) فك الاغلال ص ٣٠

خطاب المدح
في القرآن الكريم

— ١ —

في القرآن الكريم من القيم الروحية والآداب ، والحكم والأمثال والقواعد والأحكام ، والمواعظ والأخبار . ما جعله قبلة أنظار العلماء قاطبة .

فالفقيه ، والنحوي ، والبلاغي ، والفيلسوف الأخلاقي ، والمصلح الاجتماعي ، الكل يجد فيه بغيته ، حتى العالم الذي يعنى بالحقائق الموضوعية البحتة يجد فيه ما يدفعه الى البحث ويشجعه عليه .

***

لذلك ترى العلماء قد عنوا به أشد عناية ، وخدموه أجل خدمة فبحثوا فيما حواه من كل نواحيه . بحثوا في أسباب نزول الآيات ، وفي مكان نزولها ، وفيما نزل منها في السفر أو الحضر ، وفي الليل أو النهار ، وفي الصيف أو الشتاء . بحثوا في كل هذا ، وبحثوا فيه من ناحية لفظه عن الغريب ، والمعرّب ، والمشترك ، والمترادف ، والمجاز ، والاستعارة ، والتشبيه . كما بحثوا فيه من ناحية معناه عن المطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والمخصوص ، والعام الذي أريد به الخصوص ، وسرد هذا أمرٌ يطول ويخرجنا عن الغرض الذي نهدف اليه .

وتراهم قد بحثوا فيه من ناحية الأداء عن كيفية الوقف والابتداء والامالة والتخفيف . وبحثوا في وجوه خطابه عن خطاب الجنس ، والنوع ، والعين ، وخطاب المدح وهو ما نحن بصدد الكلام فيه . ووجوه الخطاب في القرآن الكريم حصرها ابن الجوزي في خمسة عشر

نوعاً وقال غيره هي أكثر من ثلاثين . وعلى كل فمنها خطاب المدح وهو كل آية وردت مصدرة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا »

ولقد عنيت بهذا الخطاب في جميع سور القرآن الكريم على أثر كلمة قرأتها لابن مسعود رواها أبو نعيم في « الحلية » والسيوطي في « الاتقان » بسندين مختلفين وها هي ذي :

إذا سمعت الله يقول: « يأيها الذين آمنوا فأوعها سمعك فانه خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه» . وابن مسعود هذا وزير من وزراء النبي صلوات الله عليه ، وعلم من أعلام السابقين المهاجرين المعروفين بالنسك من المعمرين وكان فقيهاً يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان يقول اني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة . واذا كان القرآن مأدبة الله كما كان يقول فاني أقدم لقرّاء المقتطف ألواناً من هذا الخطاب خطاب المدح غذاء للعقل والقلب .

إن هذا الخطاب في القرآن الكريم خيرٌ يؤمر به ، أو شرٌ ينهى عنه ، وهذه المجموعة المجيدة من الاوامر والنواهي خليقة بأن ترفع بني آدم — إذا آمنوا بها حق الايمان — من حضيض البهيمية المظلمة الى سماء الروحانية المنيرة .

وهذه التوجيهات العظيمة التي ترسم القيم الروحية ، وتضرب الأمثال العليا . وتخط الآداب السامية ، خوطب بها الذين يؤمنون لأن قوة الشعور في بني الانسان إنما تبنى على التقاليد، وهذه التقاليد لا تتم إلاَّ بأمثلة تضرب من جانب المؤمنين ليقتدي بهم عامة الناس لذلك كان على العلماء والنقادة ، والمصلحين وأرباب الرأي أن يكونوا أولاً وقبل كل شيء مثلاً عليا وإلاَّ فأثرهم ضعيف ضئيل ، إن أمكن أن يكون لهم أثر .

***

إن الشرق كان يحمل لواء النهضة يوم كان فيه مثل عليا في العلم والأخلاق والاحسان وتقديس الحق ، فما أحرانا أن نعيد للشرق مجده بضرب الأمثال .

إن سعيد بن المسيب دعي للبيعة للوليد واسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فقيل له ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر. قال : والله لا يقتدي بي أحد من الناس . فجلد مائة سوط فلم ينزله هذا الجلد عن رأيه .

فاذا أردنا أن نتبوأ مكانتنا بين الأمم فبالعلم والعمل ، فويلٌ لمن لا يعلم ، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل . وفي خطاب المدح في القرآن الكريم مادة غزيرة لمن أراد أن يروض نفسه على ذلك .

***

وأول خطاب تقرؤه في القرآن الكريم أتى يعالج ناحيـة هي في واقع الأمر الأساس الأول في الاجتماع . تلك هي ناحيـة تخير الألفـاظ في الحديث . فلقد نهى عن استعمال الألفاظ الجافة التي تحمل معنىً نازلاً ومدلولاً لا يناسب حال المخاطب .

« يا أيها الذينَ آمنوا لا تَـقولوا رَاعِنَـا وقُـولوا انْـظُـرْنا واسمَـعوا وللـكافرينَ عذابٌ أليم »

وكلة راعنا هذه التي كرهها الله في هـذا الخطاب مأخوذة من الرعى والرعى حفظ الغير لمصلحة شخصية لا حفظه للصالح العام . وذلك مخلٌّ بتعظيمه صلوات الله عليه . وفيه فظاظة وتجهم . وكلة انظرنا التي أمروا أن يقيموها مقام الكلمة الأولى خالياً مدلولها من التدليس التي تحمله الكلمة المنهي عنها إذ معناها ارقبنا نفهم ونتبين ما تقول والنظر إلى الانسان وقت الخطاب أقوى في الأفهام والتعليم.وروي في سبب نزول هذا الخطاب أن اليهود كانوا يقولون ذلك للنبي بنية خبيثة ، فقلدهم المسلمون في ذلك فنزلت هذه الآية بالنهي عن الكلمة التي تحمل معنى التدليس الى كلة خالية منه . وهذا تعليم فيه سموٌّ ورفعة يقوي الروابط الاجتماعية بين أفراد الجمعية الانسانية . أما الـكلام الفارغ من المعنى السامي فيوقعنا في العراك والبغضاء . فـكم من أسرة قائمة انهارت بسبب كلة نابية . وكم من تخاصم سببّته كلة لم يفكر في اختيارها قبل أن تطلق من عقالها . وعبد الله بن مسعود هذا الذي تقدّم الـكلام عليه كان يقول : « والله الذي لا إله إلاّ هو ما على ظهر الأرض شيء أحوج الى طول سجن من لسان » . وجاءه رجل فقال له أوصني يا أبا عبد الرحمن. فقال له : ليسعك بيتك واكفف لسانك ، وابك على ذكر خطيئتك . وهذا قليل من كثير ورد في هذا المعنى . ولست في حاجة الى التنبيه على أن المراد بسجن اللسان وكفه ، إنما يتعلق بالـكلمات الفارغة التي لا تضرُ ولا تنفع .

وهذه الناحية ناحية تخير ألفاظ الحديث عنى بها خطاب المدح في موضع آخر. فقال تعالى في سورة الحجرات: «يأيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمان ومنْ لمْ يتب فأولئك هم الظالمون»

روى في أسباب نزول هذا الخطاب أن خطيب الأنصار وخطيب النبي صلوات الله عليه ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنيه وقر، وكان إذا أتى رسول الله أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا. فقال له رجل: أصبت مجلساً فاجلس. فجلس ثابت مغضباً. ثم قال للرجل: يا فلان ابن فلانة يريد أمّاً كان يعير بها في الجاهلية. فسكت الرجل استحياء. هذه حادثة. وروي عن ابن عباس حادثة أخرى. وهي أن صفية بنت حي زوج النبيَ أتته يوماً فقالت له: إن النساء يعيرنني ويقلنَ لي يا يهودية بنت يهوديين فقال لها: هلاَّ قلت: إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد. فنزل هذا الخطاب الكريم بعد هذه الحادثة مع النساء، وتلك مع الرجال.

نهى هذا الخطاب عن السخرية فلا يحل لشخص أن يسخر من آخر لفقره. أو لذنب ارتكبه أو لغير ذلك. ونهى عن اللمز، وهو السب خلف الانسان. وعن التنابز بالألقاب وهو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة.

هذا مثل من الأدب الرفيع الذي جاء به خطاب المدح والذي سار على سننه بعض الناس فسادوا، قصدت بنشره رجاء أن نستحي من أنفسنا، ونأنف مما يخالف هذه الآداب. وليس يحتاج الأمر أكثر من تمرين النفس عليها وتدريجها اليها بعزمة من عزمات أولي العقل، وما أشد حاجتنا الى ذلك، فانك إذ تسمعت الى الناس في الطرقات والبيوت والأندية لا تكاد تصدق أن هؤلاء يقرأ بينهم كتاب الله صباح مساء أو لا تكاد تصدق أن هؤلاء قد فضلوا بنعمة العقل.

منصور رجب

المدرس بكلية أصول الدين

« يتبع »

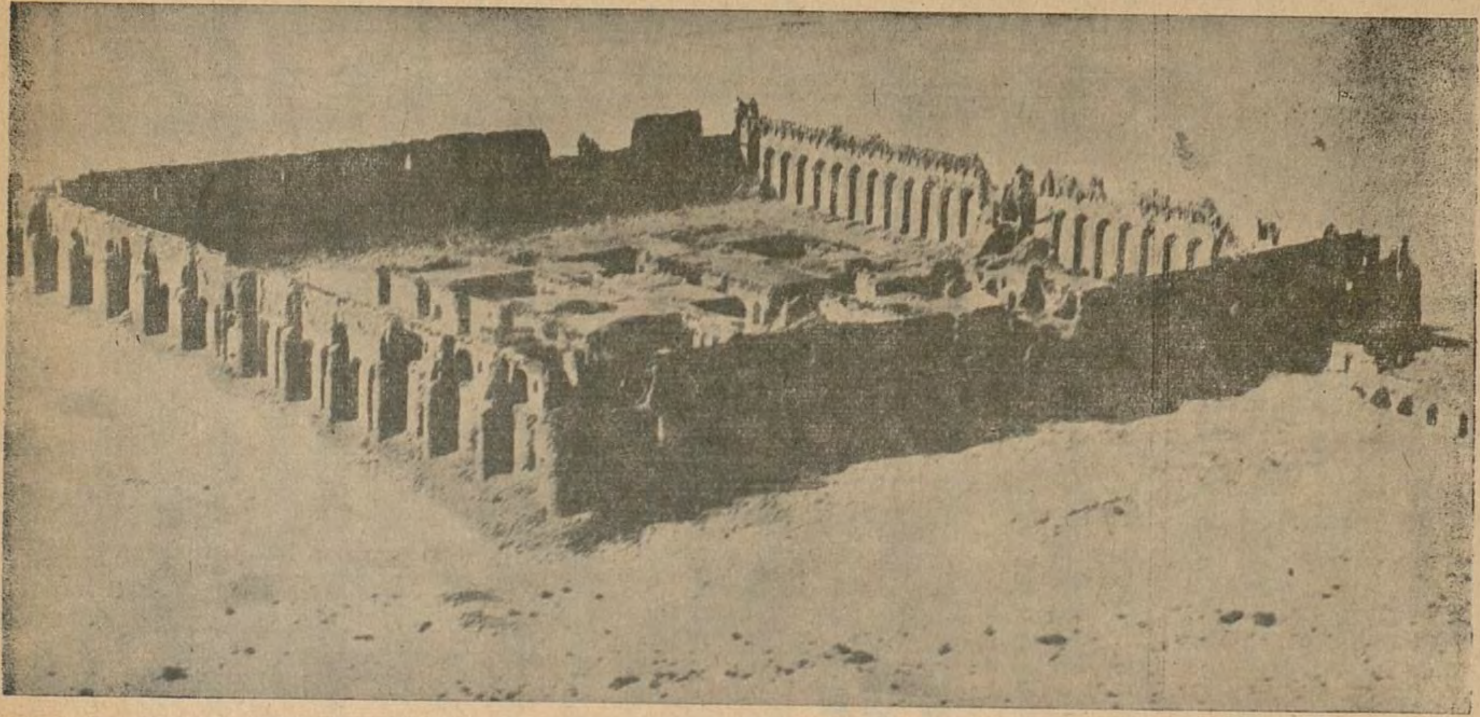

منظر شامل لحصن الأخيضر بالعراق — « حصن عين التمر العتيق » ٣١٠ م — ٣٨١ م

حصن الاخيضر بالعراق

وحصن عين التمر

من فتوح خالد بن الوليد

إنّ حصن الأخيضر هو حصن جبّار الآثار ولهيئته فخامة وعظمة ما زالتا تستثيران همم الآثاريين (١) والمؤرخين في بلاد الشرق والغرب. فقد عُني بوصفه كثير من أولئك وقليل من السياح، وأُلِّفت فيه كتب وحُبرت مقالات بمختلف اللغات، ولم يعرف أحد إلى يومنا حقيقة تاريخه غيرنا، فقد لبثنا سنين نتحرّى حقيقته ونتوخى تاريخه حتى وقفنا عليهما وقوفاً مؤيداً باليقين.

إنّ الأخيضر من العمارات التي كان يجمع بين منفعتين: السكنى والتحصن للدفاع، فهو في طف (٢) بادية العراق الغربيّة غربي نهر الفرات، على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غربي مدينة «كربلاء» الجنوبيّ. وفي كربلاء — كما هو معلوم — مشهد الحُسين بن علي — رض — وعلى مقربة حصن الأخيضر وادٍ تتجمَّرُ فيه مياه المطر يعرف بالشعيب تارةً وبالأبيض «تصغير أبيض» تارةً أخرى، وفي حقيقته أحساء وهي جمع حِسْي، وهو موضع رمل تحته صلابة فاذا مطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يغيض ومنَعَ الرمل السمائم أن تنشّفَه فاذا بُحث ذلك الرمل أصيبَ الماء(٣)، والوادي الأبيض ممتد نحو الغرب مسافات بعيدة. متصل بوادي حَوران، وفي حفافيه تنبتُ مراعٍ معشوشبة

---

(١) نسبة الى الآثار العتيقة، أما «الاثريون» فهم الذين يشتغلون بالاثر النبوي الشريف أي الحديث والعرب تنسب ذوي الحرف والفنون والمذاهب الى الجمع كالاصولي والامشاطي والشعوبي والملوكي

(٢) طف النهر والارض شاطئه وما ارتفع منها قال الزمخشري في أساس البلاغة «قتل الحسين - رض - بطف الفرات وهو شاطئه وما ارتفع من جانبه» (٣) يراجع كتاب الكامل للمبرد «ج ١ ص ٩٠» من طبعة الدلجوني

تنتجعها عدة قبائل أشهراً من كل سنة ، والظاهر لنا أن اسم « الأخَيضر » منتزع من الخضرة التي تكون في تلك المراعي .

وإن موضع حصن الأخيضر ميناءٌ لطرق القوافل والطرق الحربية في قديم الزمان. ولا تزال آثار الأعلام والصوى والمناظر شاخصةً في بعض تلك الطرق ، والحصن نفسه اليوم في صحراء بعيدة عن الفُرات ، وقد ازداد بعده عنه بعد تحوُّل مجرى الفرات نحو الشرق. ومن المعلوم أن الحسين بن علي قتل في طفّ الفرات أي شاطئه وقبره اليوم لا تقل المسافة بينه وبين الفرات عن خمسة عشر كيلومتراً ، فكَوْنُ حصن الأخيضر هناك وإطلاله على البادية وحصانته ومناعته تذكرنا الحروب الفارسية الرومية والحروب الفارسية العربية ، والجواسق والمسالح والحصون التي كان الفرس يتخذونها للدفاع عن امبراطوريتهم من الشرق وتُعيدُ إلى أذهاننا أخبار الشِحَن التي كانت تشحَنُ بها الحصون للامتناع والتحصُّن ومنع العدوّ من الايغال في البلاد لأنه يخشى أن يدهمه المتحصنون من ورائه ، وفي ذلك ما فيه من الهلاك .

صفة حصن الاخيضر

قلنا إن الأخيضر من العمارات التي كانت تجمع بين منفعتين السكنى والتحصن والدفاع . وهو مربع الشكل طول ضلعه نحو من ١٦٩ متراً ومسوَّر بسور سمكه[١] ٢١ متراً وثخانته أربعة أمتار ونصف متر في قاعدته ، وعلى ثمانين متراً من الحصن آثار سور ثان خارجي ذي ثلاث أضلع ، وداخل السور الأدنى قصر عظيم مشيّد مستطيل شكله طوله ١١٢ متراً وعرضه نحو من ٨٠ متراً وهو متصل بالسور المذكور في وسط الجهة الشمالية ، وبينهما في سائر الجهات الثلاث أفضية ، الفضاء الشرقي والفضاء الغربي عرضهما ثلاثون متراً والفضاء الجنوبي عرضه نحو من خمسين متراً . والقصر كله مبني على طبقتين أصليتين وكان على الطبقة الثانية بعض العليّات (٢) التي كانت تتخذ مناظر ومراقب ، وأقسامه كثيرة محكمة التنسيق

---

(١) السمك هو الارتفاع ، وقد أدى مسخ اللغة العربية الى استعماله بمعنى « الثخن والثخانة »

(٢) العليات والعلالي جمع « العلية » وهي الغرفة أي بيت في الطبقة الثانية فما فوقها

غالب عليها التناظر إلاَّ الذي أصابته المرمَّة وغيرت من شكله حاجة الناس بمقتضى زمانهم ودولهم ، وأرى أن النظر الى « تخطيط » ذلك الحصن الهائل وقصره أدل من غيره على تبين

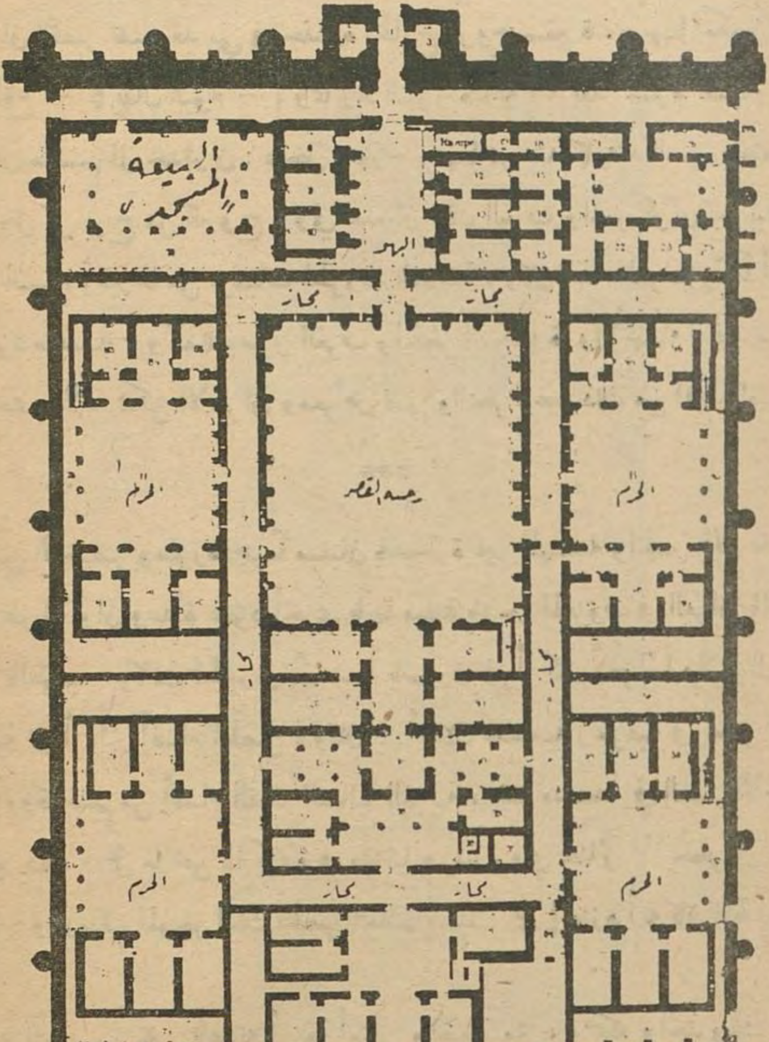
البيعة
المسجد
البهو
مجاز
مجاز
الحرم
صحن القصر
الحرم
مجاز
مجاز
مجاز
مجاز
الحرم
الحرم

تخطيط حصن الأخيضر بالعراق

أقسامه وتصوُّر فخامته وتقدير ضخامة عمارته « راجع تخطيط الحصن » .

إن سور حصن الأخيضر الأدنى ذو سلسلة من البروج متصلة من كل جهاته ، وفي كل

ركن من أركان السور برج عظيم قطره نحو من خمسة أمتار ، وفي وسط كل ضلع من أضلاع السور برج كبير ذو باب داخل ، وبين برج كل ركن وبرج وسط الضلع خمسة أبراج يزيد نصف قطر كل منها على ثلاثة أمتار ، فعدّة البروج التي في سور الحصن من كل الجهات ٤٨ برجاً . ثم ان القصر نفسه قد بني في جداره الخارج بروج صغيرة ، وبها يكون له ثلاثة خطوط للدفاع — كما يقال اليوم — . ومما زاد السور مناعة أنه بعد عشرة أمتار من سمكه فوق الأرض منقسم الى جدارين : داخل وخارج بينهما ممر ممتد كما يمتد السور ومتصل بغرفة مدوّرة داخل كل برج من البروج ، وفي جدران تلك الغرف والممر كوًى حربية ضيقة تتخذ لرمي السهام وغيرها من مرميات الحروب الدفاعية ، وكان هذا الممر مؤزّجاً أي مبنيًّا أعلاه بعقود متصلة ، وكذلك سائر الغرف والحجر الكثيرة والأبهاء ، فلم يستعمل في سقوفها الخشب لأنه ممكن الاحراق ومعرَّض للبلى والنخر وغير ذلك من آفات العمارة .

***

وحصن الأخيضر وسوره جميعاً مبنيان بالحجارة غير المهندمة والجصّ إلاّ عقد البهو الكبير وهو الايوان وعدَّة عقود أخرى فانها مبنية بالآجر المعروف في العراق بالطابوق (١) وفي مصر بالطوب ، وكانت الجدران مُسيعةً بالبورق في أكثر أجزائها ولا تزال آثار هذا الطلاء باقية على أكثر أقسام الحصن ، وكان على أشكال هندسية زخرفية في بعض المواضع كما رؤي في أروقة قسم من أقسام القصر الشمالية الغربية ، اتخذ مسجداً في العصر الاسلامي بعد أن كان غير ذلك ، على ما نحن ذاكروه في مقالنا هذا ، وفي حنائر (٢) حجرتين من الحجر الكثيرة . والوصف الموجز لذلك الحصن العظيم يُثبتُ على إيجازه أنه كان غايةً في الحصانة والمناعة .

وما ظنك بسور ثخن قاعدته أربعة أمتار ونصف متر ، وسمكه واحد وعشرون متراً ، وبحصن مساحته ثمانية وعشرون ألف متر مربع وتسعمائة متر مربع ؟ إذن كان يمكن الدولة

---

(١) قال الجوهري في الصحاح « الطابق الآجر الكبير فارسي معرب » وفي القاموس انه معرب « تابه » كالطاباق

(٢) الحنائر جمع الحنيرة ، قال الجوهري « الحنيرة : عقد الطاق المبني ... »

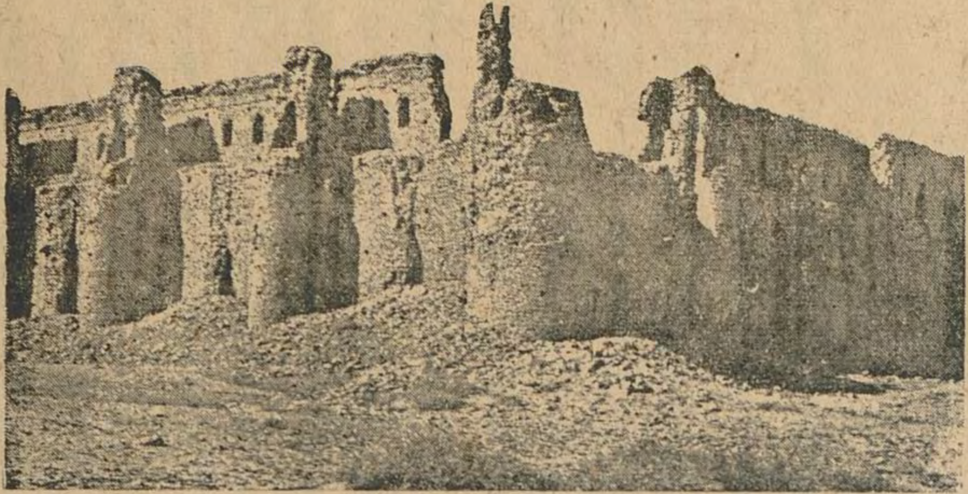

منظر الركن الشمالي الشرقي من حصن الأخيضر لسوره الأعلى من خارج

التي هو لها أن تجمع فيه ألوفاً كثيرة من الجنود والرعية أيام الحصار الذي يباشرهُ العدوّ . وهذا أحد الأدلة على أنه كان حصناً لدولة عظيمة لأنّ مئات ألوف الدنانير لا يُقامُ لها وزن في بناء مثل هذا الحصن ، فبناؤه خارج عن طاقة الرعايا والأغنياء والأثرياء بله أنه مبني في ميناء طرقٍ تجارية وحربية في صحراء غير مضمونة الماء ولا الاتصال بالمدُن والمزارع .

تاريخ حصن الأخيضر

ليس من شك في أنّ الآثار العتيقة كحصن الأخيضر تَصْعُب على الباحث والآثاري معرفة تاريخها لخلوّها من كتابة منقوشة أو آثار مكتوبة تعين على فهم التاريخ ، ثمَّ إنَّ كون الحصن المذكور على طرق صحراويةٍ دارسة لاهمال الناس إيّاها ، زاد تاريخه استبهاماً واستعجاماً ، ولكنّ عظمته وفخامته وسعته حزبت الآثاريين إليه فانه إحدى العاديات العجيبة في الآثار العتيقة ، وقد اختلفت الاقوال في تاريخه كما اختلفت في القصور والعمارات القائمة في مشارف الشام العتيقة العريقة في القدم ، ولم يكن الاختلاف مقصوراً على المؤرخين بل جاوزهم الى الآثاريين الذين يستدلون بطرز البناء وفنون الزخرفة والريازة قبل استدلالهم بالكتابة والرقم ، فلم ينفصل بعضهم عن بعض في النزاع ، ونحن نرى أن سبب ذلك هو أن الفنون الانسانيَّة متصلة الحلقات بحيث يصعب على المتحرّي تمييز بعضها عن بعض بأوصاف مستقلة وتاريخ مضبوط ، وآخر رسالة مستقلة رأيناها مؤلفة في البحث عن تاريخ الأخيضر هي رسالة « مديرية الآثار القديمة » في العراق [1] ، على عهد مديرها الأستاذ الشهير ساطع الحُصريّ ، فقد جاء في الصفحة ٣٣ منها قول كاتبها « من الغريب أن تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط [2] ، بالرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه وأهمية موقعه ، لأنه لا توجد في القصر أو الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه كما لا يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة إشارات صريحة تدل عليه ، فانّ أقدم الاشارات التي تدل على الأخيضر

---

(١) راجع الاخيضر طبع مطبعة الحكومة العراقية فيها ١٣ شكلا و ٤٦ لوحاً ، سنة ١٩٣٧

(٢) بل هو غير معلوم أصلا وفرعاً وضبطاً وغير ضبط وسيأتي عليه .

بصورة أكيدة ترجع إلى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الرؤّاد من الأوربيين، ولهذا نستطيع أن نقول إن كل ما يعرف عن تاريخ الأخيضر لا يتعدّى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات».

وذكر في الحاشية السياحين الذين رأوا حصن الأخيضر على حسب التاريخ فأولهم «بيترو دي لا ڤاله Pietro della Valle في أوائل القرن السابع عشر، ونيبهر K. Neibuhr في أواسط القرن الثامن عشر، وشيخنا الاستاذ لويس ماسنيون Le. Massignon سنة ١٩٠٨ والمس بل Gertrude Bell سنة ١٩٠٩، وفيوله M. H. Viollet، وديولافوا M. Dieulafoy وموزيل Alois Musil، واوسكار رويتر Oskar Reuther بين سنة ١٩١٠ و ١٩١٢.

لقد جاءت أسماء أكثر هؤلاء في مقالة عنوانها «قصر الأخيضر ورأي العلامة الآلوسي فيه» نشرت في إحدى المجلات العراقية الشهيرة (١) وقد جاء فيها أن المهندس الآثاري ديولافوا المذكور يذهب الى أن هذا القصر يرتقي الى الربع الأخير من القرن السادس للميلاد أي قبيل الاسلام. ويقول: ان الريازة (٢) وفن تزويق الأبنية كانا قد بلغا أوج الكمال منذ عصر سامرّاء، ومن ثمّ يتضح أن كل بناء لا ترى فيه الريازة الاّ في بنيتها أو نشوئه فهو على الأرجح سابق للاسلام كقصر الأخيضر في العراق» ثم ذكر كاتب المقالة أن رأي المهندس فيوله على الضد من رأي المذكور، فهو يعد الحصن والقصر من الأبنية التي شيدت في صميم العصور الاسلامية. وكذلك قول الآنسة «بل» المذكورة، ثم أشار الى رأي الأستاذ ماسنيون في أن حصن الأخيضر ان لم يكن «الخورنق» أو «السدير» فلا يبعد أن يكون (قصر سنداد) ذا الشرفات، ويخلص الكاتب الى رأي السيد محمود شكري الآلوسي وهو أن أصله (الأكيدر) باسم الأكيدر الملك السكوني الكندي ثم صحفه الناس الى (الأخيضر) وهو قول لا يصبر على النقد، وختم الكاتب مقالته بأن القصر هو في سنة ١٩١٢ منتهى

---

(١) لغة العرب، بغداد «مج ١ ص ٤٥ سنة ١٩١٢» (٢) قال المترجم لقوله مفسراً الريازة «فن البناء» وقد جاء في أساس البلاغة «ورزت ضيعتي: قمت عليها وأصلحتها وهو راز البنائين: رأسهم وكذلك راز أهل كل صناعة وكان راز سفينة نوح جبريل ر — و — لانه يروز ما يصنعه ولانه راز الصناعة حتى أتقنها. وأصله رائز كشاك في شائك ولذلك جمع على رازة لسائس في ساسة»

قائمية (١) الرزازة الراجع أمرها الى فهد بك من قبيلة عنزة وهو أيضاً آخر حدود مديرية شفاثة، وان فهد بك يزعم أن القصر له، ومدير شفاثة قد استخص عينِ ماء مجاورة له وهي العين الوحيدة التي ليس في مائها مادة كبريتية في تلك النواحي.

وورد في المجلة نفسها في أثناء الكلام على قصر (بلكوارا) بسامرًا وعثور الدكتور هرتسفيلد عليه سنة ١٩١٣ وانه هو الأخربة المعروفة عند المعاصرين له باسم المنقور قول الكاتب :

« وهيئة هذا القصر بهيئة القصرين الشهيرين المعروف أحدهما بالمشتى (بتشديد التاء) الذي بناه يزيد الثاني من خلفاء الأمويين والأخيضر المنسوب الى الأكيدر صاحب دومة الجندل إلاَّ انه أكبر منهما بكثير، وكان الدكتور هرتسفلد ذهب الى أن أصل ذينك القصرين على مثال السدير أو السدلي أو الحاري بكمين الذي وصفه صاحب مروج الذهب »

وقد ثبت عندنا إن الدكتور هرتسفلد لم يعرف موضع قصر (بلكوارا) (٢) فكيف يبنى على ذلك الأقيسة وينظّر بين النظائر ويدخل حصن الأخيضر فيها ؟ إن قصر بلكوارا كان بالقادسية التي بين سامرا وبغداد، قال الجهشياري (وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف ببركوارا . ولما فرغ من بنائه وهبه لابنه المعتز بالله وجعل أعذاره فيه وكان أحسن أبنية المتوكل وأجلّها) وقال قبل ذلك « وبين القادسية وسرّ من رأى أربعة فراسخ والمطيرة بينهما (٣) » فكان إذن بين سامرًا والقادسية زهاء اثنين وثلاثين كيلو متراً، والذي زادنا استغراباً أن أحد مؤرخي فن العمارة الاسلامية من الأوربيين الفضلاء عدَّ قصر الأخيضر بناءً اسلاميًا وقاس به غيره للاستدلال على عروبته واسلاميته فنًا وتاريخاً (٤) مع أن بين « طاق إيوان » الذي ذكر صورته الفاضل المذكور، وجدران الأخيضر مشابه واضحة المعالم (٥)، وطاق إيوان من الأبنية الساسانية كما هو معلوم.

---

(١) القائمية: رتبة القائم بالمقام (٢) راجع مجلة لغة العرب « مج ١ ص ١٣٤ — ١٣٨ »

(٣) أصول التاريخ والادب « مج ١ ص ١٤٠ » وهو من مجموعاتنا الخطية، فضلا عن كتاب « الديارات » لعلي بن محمد الشابشتي .

(٤) K. A. C. Creswell : Early Muslim Architecture, V. I p. 56, 280

(٥) المرجع المذكور « ج ١ ص ٢٨٢ »

وقد احتوى حصن الأخيضر على دورين من أدوار العمارة — كما يسمونه اليوم — فان واصفاً وصفه في شهر آذار «مارس» سنة ١٩١٣ بأن فيه إيواناً معقوداً من الطاباق «الطوب» عقداً محرّداً (١) وبناؤه أشبه شيء ببناء الايوان الذي في قصر الخليفة بسامرا بل هو هو... ونظن أن بناء هذا الايوان بعد قصر الأخيضر بقرن أو قرنين أو أكثر من ذلك، لأن ليس فيه ما يشابهه قطعاً (٢) » . وكنا أشرنا الى أن البهو الكبير وهو الايوان مبني من الآجر .

وورد في رسالة الأخيضر قول كاتبها « نستطيع أن نجزم بأن جميع مباني الأخيضر لم تشيد في وقت واحد، بل ان البناية الملحقة الداخلية كالبناية الاضافية الخارجية، استحدثت بعد اتمام تشييد القصر والحصن بمدة وذلك لأن وضع هاتين البنايتين وتخطيطهما لا يتناسبان بوجه من الوجوه مع التنظيم الدقيق الذي يشاهد في تقسيمات القصر والحصن والتناظر التام الذي يسود تخطيطهما باستثناء هاتين البنايتين . إذاً فيحق لنا أن نقول : انهما لم تدخلا في المخطط الأصلي ولم تشيدا إلاَّ بعد اكمال القصر والحصن بمدة بناءً على الحاجات الجديدة التي تولدت خلال استعمال القصر وتطورات الأحوال (٣) .

إن في هذا القول تصريحاً بدوري العمارة اللذين أشرنا اليهما ، على أن في كل ما قدَّمنا ذكره من أقوال الباحثين اضطراباً ظاهراً واختلافاً بيناً منعا أن تكون للمباحث نتيجة محققة ونظرات مدققة . ومن الباحثين من ذهب الى أنه « قصر مقاتل (٤) » أو « قصر بني مقاتل » على تسمية أخرى ، وهو قصر وصفه ياقوت ومن بعده بأنه « قصر كان بين عين التمر والشام منسوب الى مقاتل بن حيان وهو قرب القطقطانة » وهو قصر مشهور بموضعه كان قرب الكوفة على الطريق بينها وبين الشام ، والقطقطانة تعرف اليوم بالطقطقانة وهي أقرب الى الكوفة منها الى موضع الأخيضر ، وما لنا نستمر على تسويد السطور فيما هو داحض بنفسه لأمور كثيرة منها جهل القائل بذاك للمواضع والمسافات التي بينها وحقائق القصور والحصون

---

(١) في أساس البلاغة « بيت محرد : مسنم كالكوخ » وفي الصحاح « تحريد الشيء : تعويجه كالطاق ومنه قيل بيت محرد أي مسنم »

(٢) لغة العرب « مج ٣ ص ٣١ »

(٣ رسالة مديرية الآثار ببغداد .« ص ٣٧ »

(٤) ولعلنا أن نرى قائلا يقول يوماً ما انه «خفان» على وزن حسان فقد كان حصنا أيضاً قرب الكوفة !

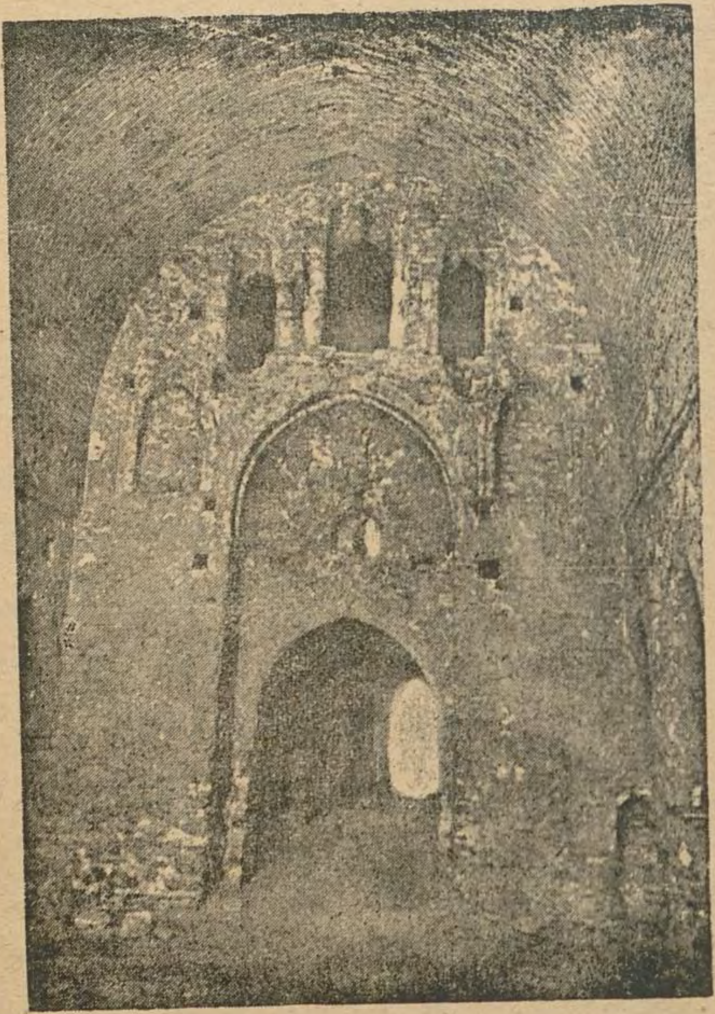

الايوان الأعظم في حصن الأخيضر وهو من الدور العماري الثاني الذي دخل فيه الآجر أي الطوب . وذلك في العصور الاسلامية وفيه تقليد للبناء الساساني .

واصطلاحات البلدانيين كقولهم « كان » مما يدل على العفاء والاندثار ، وأين قصر مجهول الحقيقة والموضع لعفائه ودروسه من هذا الحصن العظيم الراسخ القواعد المبني للتحصن والدفاع قبل كل انتفاع ولا تزال آثاره شاهدة بأنه حصن انبراطورية .

والحقيقة أنَّ حصن الأخيضر وحيد الشكل والفخامة والهيئة في العراق ، فهو لم يُبن للدفاع عن مدينة عظيمة ولا عُرفَ في عهود الاسلام بناء مثله لسقوط منفعته وإنما بني للدفاع عن دولة عظيمة كالأمبراطورية الساسانية قبل الفتوح الاسلاميَّة ، جرياً على القواعد القديمة في الحروب بين الدول العظيمة ، — كما أشرنا اليه في أول مقالتنا .

وهذا الحصن الضخم الفخم كان يُسمّى « حصن عين التمر ⁽¹⁾ » وقد فتَحَه خالد بن الوليد القائد العظيم في سنة ١٢ هـ بعد أن فرغ من حرب المرتدّين باليمامة وارتفع نحو الطفوف التي بين غربي العراق وبادية السماوة ، وكونه — أعني الحصن — مضافاً إلى عين التمر إنما جرى بسبب قربه من تلك البلدة وسيأتي فيما نقصّ من أخباره أنه سُمِّيَ حيناً بقصر شفاثا وهي إحدى قرى عين التمر ، وذلك يدل على أنَّ عين التمر كانت على مسافة ما منه وكان هو مستقلاً عنها لأنه بني كما قلنا للدفاع عن حدود الامبراطورية الساسانية الغربية .

أخبار حصن الاخيضر

ومما أسلفنا من القول يعلم القارىء أنَّ « حصن الأخيضر » من الأبنية الفارسية الكسرويّة ، وأن فخامته وعظمته يمنعان أن لا يكون له ذكر في أخبار الفرس والفتوح العربية الاسلاميّة ، وأول ما نذكر من ذلك قول البلاذريّ « كانت عيون الطف مثل عين الصيد والقطقطانة والرهيمة ⁽²⁾ وعين جمل وذواتها للموكلين بالمسالح التي وراء السَّواد وهي عيون خندق سابور الذي حفره بينه وبين العرب الموكلين بمسالح الخندق وغيرهم ⁽³⁾ »

---

(١) جاء في مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع « عين التمر » بلدة فى طرف البادية على غربي الفرات وحولها قريات منها شفاثا وتعرف (عين التمر) ببلد العين ، اكثر نخلها القسب ويحمل منها الى سائر الاماكن » . قال مصطفى جواد : ولا تزال قرية شفاثا عامرة قرب حصن الاخيضر ، وأما عين التمر فالظاهر أن عيون مائها غارت بعد القرن السابع للهجرة فدثرت وقول بعضهم انها رأس العين الحالية وهم

(٢) لا تزال « الرهيمة » معروفة بين القطقطانة والكوفة ، وهي المذكورة في شعر المتنبي

(٣) فتوح البلدان « ص ٢٩٦ » من طبعة المطبعة المصرية سنة ١٩٣٢

وفي معجم البلدان لياقوت ومراصد الاطلاع أن « خندق سابور في بريّة الكوفة حفره سابور ملك الفرس بينه وبين العرب من هيت فطفّ البادية الى كاظمة مما يلي البصرة الى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح » .

ومن هذا يتضح باديء ذي بدءٍ أنّ حصن الأخيضر من تلك المسالح والجواسق التي بناها سابور لحماية مملكته من الجهة الغربية ، وهو سابور الملقب ذا الاكتاف الذي ملك في الدولة الساسانية مَن سنة ٣١٠ م الى سنة ٣٨١ ففي مثل هذا العهد الجليل يبنى مثل ذلك الحصن العظيم ، ولقد جاء في أخبار سابور أنه بعد أن افتتح حصن الحضر بل مدينة الحضر بجبال تكريت بين دجلة والفرات على نهر الثرثار سبى ابنة ملكها وأعرس بها بعين التمر (١) . وفي هذا الخبر إيماء الى أن في عين التمر إذ ذاك ما كان يوافق الامبراطور الفارسي من مسكن ذي جلالة وفخامة دون سائر البلاد القريبة من طفوف البادية ، فلعله أعرس بها في الأخيضر

ومما يدل على أنه كان لعين التمر حصن عظيم هائل قول البلاذري في غزو خالد بن الوليد لغربي العراق في السنة التي ذكرناها آنفاً — أعني سنة ١٢ هـ — : « ثم أتى خالد عين التمر فألصق بحصنها وكانت فيه مسلحة للاعاجم عظيمة ، فخرج أهل الحصن فقاتلوا ، ثم لزموا حصنهم فحاصرهم خالد والمسلمون حتى سألوا الأمان فأبى أن يؤمنهم وافتتح الحصن عنوةً وقتل وسبى ووجد في كنيسة هناك جماعة سباهم فكان من ذلك السبي حمران بن أبان ابن خالد التمري . وسيرين أبو محمد بن سيرين واخوته وهم يحيي بن سيرين وأنس بن سيرين ومعبد ابن سيرين وهو أكبر اخوته . وكان من ذلك السبي أيضاً أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر ويسار جد محمد بن اسحاق صاحب السيرة. وكان منهم مرّة أبو عبيد جد محمد بن زيد ابن عبيد بن مرّة، ونفيس (٢) بن محمد بن زيد بن عبيد . ونصير أبو موسى بن نصير صاحب المغرب » ثم ذكر أن هلال بن عقة بن قيس بن البشر النمري كان على النمر بن قاسط بعين التمر فجمع لخالد وقاتله فظفر به (خالد) فقتله وصلبه (٣) ، وفي رواية ابن الكلبي أنه عقة ابن قيس بن البشر لا ابنه هلال » .

---

(١) أبو الفرج الاصفهاني في «الاغاني ج٢ ص ١٤٠ ، وما بعدها ، طبع دار الكتب

(٢) أي وجد نفيس بن محمد ، فنفيس معطوف على محمد بن زيد (٣) فتوح البلدان «ص٢٤٨ — ٩» من الطبعة المذكورة

وقد فصَّل أبو جعفر الطبري خبر فتح الحصن وذكر أن بعين التمر يومئذٍ من القواد الفارسيين «مهران بن بهرام بن جوبين» في جمع من العظيم من العجم، ومن العرب عقة ابن أبي عقة قيس في جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لفّ لفهم، فلزم مهران عين التمر وألقى بأفناء العرب على خالد وأصحابه حتى يهنوا ثم يلقاهم هو وأصحابه العجم، وكان مهران مرابطاً في حصن عين التمر الذي قلنا انه الأخيضر مع رابطة (١) فارس، وهزم جيش خالد العرب المذكورين ومن معهم من العجم وتراجعت فلولهم الى الحصن واقتحموه، فاعتصموا به. ولما جاء الخبر مهران بهزيمة العرب الذين جعلهم وقاية له هرب في جنده وترك الحصن، وأقبل خالد وأصحابه حتى نزل على الحصن وظنّ المعتصمون به أنه يغير على ما كان خارجه ويتركهم لوجهه كعادة العرب. ولكن خالداً حاولهم وواثبهم وحاصرهم وصابرهم فخارت نفوسهم بعد أن رأوا هروب العجم فأجابوا خالداً الى حكمه فيهم واستسلموا اليه فأسر من في الحصن من الرجال وضرب أعناقهم أجمعين. قال الطبري «وسبى خالد كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه ووجد في بيعتهم اربعين غلاماً يتعلمون الانجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهن فقسمهم في أهل البلاد، منهم أبو زياد مولى ثقيف (٢) وحريث وعلاثة، ومنهم حمير وأبو قيس» ثم ذكر أن منهم فلاناً وفلاناً (٣).

فقول البلاذري إن في حصن عين التمر يومذاك مسلحة عظيمة للاعاجم وذكره هو والطبري لكنيسة فيه وجدها خالد بن الوليد مغلقة على أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل وقول الطبري ثانية إن في حصن عين التمر رابطة من جنود العجم وضعهم فيه كسرى كل ذلك يقرّب منا أوصاف حصن الأخيضر الحالي. فما تزال الكنيسة قائمة الدعائم واضحة المعالم وهي التي حوّلت مسجداً بعد الفتح الاسلامي، وهي على يمين الداخل لذلك الحصن «راجع التخطيط». ومن الغريب ان الذين ذكروا المسجد لم يكلفوا أنفسهم تحقيق قبلته، على أن

---

(١) الرابطة هم الحماة المرابطون. وقال الطبري في موضع آخر باسناده «ثم سار خالد حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ورابط حصناً بها فيه مقاتلة كان كسرى وضعهم فيه حتى استنزلهم فضرب أعناقهم وسبى من عين التمر ومن أبناء تلك المرابطة سبايا كثيرة وبعث بها الى أبي بكر» (ج ٤ ص ٤٤) من طبعة المطبعة الحسينية بمصر (٢) حذفنا أسماء من ذكرناهم نقلاً عن البلاذري (٣) الطبري «ج ٤ ص ٢٦، ٤٤»

لا ينكر أن في حضرة (١) المسجد قد أدخل شيء من الآجر وهو مادة جديدة بالنسبة الى مادة الحصن وهي الحجارة غير المهندمة .

سكن العرب حصن عين التمر أي حصن الأخيضر بعد الفتح الاسلامي وتداولوه ولاسيما أهل البادية منهم كبني أسد وكان قد تحصن فيه ضبّة بن محمد بن يزيد العيني (٢) ولبث يخيف السبل وينهب القرى ويستبيح الأموال وغيرها وكلما طلب دخل الحصن واعتصم به ، وله قصة مع أبي الطيب المتنبي ، قال أحد جماع ديوانه :

« كان قوم من أهل العراق قتلوا ابن يزيد (٣) العيني ... ونشأ له من امرأته ولد بالعين (٤) يسمى ضبة يغدر بكل من نزل به وأكل معه أو شرب . واجتاز أبو الطيب بالطف فنزل بأصدقاء ، وسارت خيلهم الى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم فدخل العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه أياماً لا سلاح له إلاّ شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ويسمي أبا الطيب (٥) ويشتمه وعلم أنه لو سبه لهم معرضاً لم يعمل فيه عمل التصريح ولم يفهم ، فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال في جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة :

ما أنصف القوم ضبّة   وأمه الطرطبة (٦)

وفي نسخة أخرى « وسار أصدقاء أبي الطيب لمحاربة هذا العبد وسألوا أبا الطيب المسير معهم فأجاب الى ذلك فلما نزلوا تحت حصن هو فيه جعل يشتمهم أقبح شتيمة ويسبّ أبا الطيب باسمه فسألوا أبا الطيب أن يهجوه (٧) »

وقد ظلّ ضبة الأسدي يفسد في تلك الأرض نيفاً وثلاثين سنة، وفي سنة ٣٦٩ نفذ عسكر الى عين التمر في طلب ضبة بن محمد الأسدي. قال مسكويه : « وقد مرّ ذكره وانه ممن يسلك سبيل الدّعار ويسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيح الأموال والفروج وانتهك حرمة المشهد بالحائر . فلما أطلّ عليه العسكر المجرد هرب بحشاشته الى البادية وأسلم أهله

---

(١) قال في أساس البلاغة «وجمع الحضرة يريد بناء دار ، وهي عدة البناء من الآجر والجص وغيرهما»

(٢) العيني نسبة الى « عين التمر » وهي نسبة ابي العتاهية وغيره وفي ديوان المتنبي الجديد الطبع ص ٥١٤ « الضبي » وهو خطأ

(٣) قدمنا ان اسمه (محمد)   (٤) اي عين التمر   (٥) اي كان يسب المتنبى خاصة

(٦) ديوان المتنبى ، مخطوط في دار الكتب الوطنية بباريس ، رقمه ٣٠٩١ في الورقة ١٩٤ و١٩٥

(٧) المخطوط المرقوم بـ ٣٠٩٣ فى الورقة ١٣٢

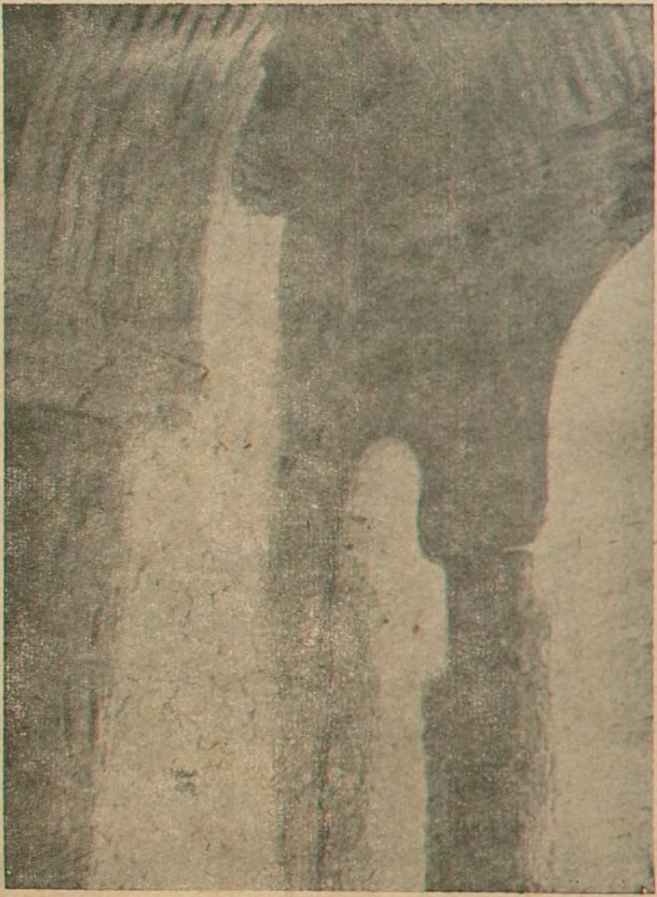

دعامة وخبيرة في داخل حصن الأخيضر
« الآجر أو الطوب من الدور العماري الثاني »

وحرمه فحصل أكثرهم في الأسر وملكت عين التمر(١) » . وقال أبو الفرج ابن الجوزي : « وكان من أكابر الدعار وقد قتل النفوس ونهب الأموال وتحصن بعين التمر نيفاً وثلاثين سنة والوصول اليها يصعب فلما أطلّ عليه هرب(٢) ... » وقال ابن الأثير « وفيها أرسل سرية الى عين التمر وبها ضبة بن محمد الأسدي وكان يسلك سبيل اللصوص وقطاع الطريق فلم يشعر إلاّ والعساكر معه ، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً وأخذ ماله وأهله وملكت عين التمر وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين فعوقب بهذا »(٣) .

ويستبين من الأخبار التي ذكرناها أن ذلك الداعر القاطع للطريق كان يأوي الى حصن حصين ويعتصم وراء سور متين طوال تلك السنين ، بحيث أن الملك عضد الدولة الذي دوَّخ البلاد شرقاً وغرباً أنفذ اليه عسكراً لمحاصرته والاستيلاء على حصنه ولكنه هرب ولم يتحصن كما كانت عادته لاعتقاده أنهم يقتحمون عليه الحصن .

وفي أواسط القرن الخامس للهجرة كانت السيطرة في الطفوف لقبيلة خفاجة وذهبت سلطة بني أسد ، وتصرَّف في حصن عين التمر أعني حصن الأخيضر رؤساءهم ، ومنهم محمود ابن الأخرم الخفاجي ، نسبة الى قبيلة خفاجة (٤) ، وقد ظهر لي أنه في أيام استيلاء الخفاجيين على ذلك الحصن العظيم أحدثوا فيه أبنية وزيادات عمارية وترميمات وتحصينات ، حتى أصبح يسمى « قلعة عين التمر » . وكان محمود بن الأخرم رئيس قبيلة خفاجة قد قصد الى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بمصر ورجع في سنة ٤٤٨ ومعه أموال فخطب بشفاثا (٥) وعين التمر وبالكوفة للمستنصر المذكور(٦) ومعنى ذلك أنه خطب له بحصن الأخيضر كسائر بلاده واستعد للاحداث . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٨ هـ « وفيها خطب محمود الخفاجي للمستنصر العلوي صاحب مصر بشفاثا والعين وصار في طاعته »(٧)

---

(١) تجارب السلف ج ٦ ص ٤١٤ (٢) المنتظم ج ٧ ص ١٠٠ — ١

(٣) الكامل في حوادث سنة ٣٦٩ (٤) قال القلقشندي في نهاية الارب في أنساب العرب (ص ٢٠٧) : بنو خفاجة بطن من بني عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة ... وقد انتقلوا في آخر الايام الى العراق والجزيرة وكان لهم بسقي الفرات دولة ...

(٥) قدمنا في نقلنا ان شفاثا من قرى عين التمر ولا تزال تعرف بهذا الاسم في أيامنا ومنهم من يسميها (شثاثة) مصحفاً . (٦) ابو الفرج بن الجوزي في (المنتظم ج ٨ ص ١٧٣) ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، مخطوط رقمه ١٥٠٦ بدار الكتب بباريس في الورقة ١٨ (٧) الكامل في حوادث سنة ٤٤٨

ولكن محموداً سرعان ما نقض عهده للمستنصر الفاطمي وأصلح أمره مع الخليفة القائم بأمر الله العباسي والسلطان طغرلبك السلجوقي (١) . ثم احتلَّ أبو الحارث ارسلان البساسيري بغداد والعراق وخطب للمستنصر المذكور وجعل محمود بن الأخرم الخفاجي أميراً على الكوفة وسقي الفرات (٢) ، وقال سبط بن الجوزي في حوادث صفر من سنة « ٤٥٠ » : وفي هذا الشهر أنفذ أهل شفاثا وقلعة العين التي لمحمود بن الأخرم أمير بني خفاجة وهي مَعقل الخفاجيين الى السلطان طغرلبك فسلموها اليه فأعطاها أنو شروان ابن زوجته فتسلمها أصحابه (٣) » فقد استبان من قول المؤرخ «قلعة عين التمر» و «معقل الخفاجيين» وغير ذلك فخامة تلك القلعة وسعتها وحصانتها ومتانة بنيانها .

وفي سنة « ٤٥٢ » خلع السلطان طغرلبك على محمود بن الأخرم الخفاجي وردَّت اليه إمارة بني خفاجة وولاية الكوفة وسقي الفرات وضمن خواص السلطان هناك بأربعة آلاف دينار كل سنة ، وكان قد وليها رجب بن منيع الخفاجي فصرف عنها (٤) . وفي سنة «٤٥٥» قتل رجب بن منيع المذكور ورجل آخر محمود بن الأخرم الخفاجي بأرض الجامعين ونهب جارية له كانت حظية عنده ، قال سبط بن الجوزي «وأخذها الى قلعة شفاثا..وألقت نفسها من أعلى القلعة فهلكت (٥) ». وإنما عنى المؤرخ بقلعة شفاثا قلعة عين التمر على ما ظهر لنا فانا لم نجد لشفاثا قلعة في التاريخ ، والسبب في ذلك تقارب البلدتين إحداهما من الأخرى — كما أشرنا اليه في أول المقالة — وبذلك تكون الجارية قد ألقت نفسها من حصن الأخيضر وقد ذكرنا أن سمكه أي ارتفاعه واحد وعشرون متراً وقلّما ينجو من الموت من يرمي نفسه من هذا السمك الى الأرض .

وكونُ الأخيضر معقل الخفاجيين — على ما قدمنا ذكره — يوضحُ لنا القول الشائع في قبيلة الرّولة ببلاد الشام من أنّ الأخيضر هو عندهم « قصر الخفاجي » (٦) ويظهر كلَّ الظهور أنَّ الدلائل وتضافر الحوادث والأخبار على أنَّ حصن الأخيضر الجليل هو حصن

---

(١) الكامل في سنة ٤٤٩ (٢) المذكور في سنة ٤٥٠ (٣) مرآة الزمان في المخطوط المذكور (الورقة) ٤٥ (٤) الكامل في حوادث سنة ٤٥٢ (٥) مرآة الزمان في المخطوط المذكور (الورقة ٩٠)

(٦) A. Musil Rwala Beduins, p. 155, 243

عين التمر العتيق ليْسا من الاتفاق ولا الشبهات ولا بنات الظنون .

وفي التاريخ من الحوادث ما يدل على أن حصن عين التمر أي قلعتهـا على تسمية سابقة لبعض المؤرخين ، قد تضعضع وفقد من مناعته وحصانته ، ففي سنة ٦٩٣ هـ أنفذ بايرو أحد القواد المغول بالعراق في زمان السلطان كيختو الايلخاني جماعة من جنده الى « عين التمر » والكبيسات فنهبوا الرعيّة وسبوا وأسروا وعملوا كل منكر (١) ، وآخر ما وجدنا فيه ذكر العين ديوان الشاعر الكبير صفي الدين عبد العزيز الحلي فقد جاء في « باب المراثي » منه أن صاحبه رثى صديقاً له رتب ناظراً ببلد العين بالعراق وتوفي بها قال :

وأصبح العين بلا ناظر كأنها العين بلا عين (٢)

الخاتمة

وخاتمةُ البحث أن « حصن الأخيضر » القائم حتى اليوم بالعراق على خمسة وخمسين كيلومتراً من كربلاء غربي الفرات من الحصون العتيقة الفخمة الهائلة لا نجد له مثيلاً في البلاد ولا سيما العراق ، فهو متميز بكونه مبنيًّا من الحجارة الصم الصلاب المرضومة المعروفة بالرضام (٣) ، على قلتها بل ندورها في أرض الحصن ولا يشبهُهُ في ذلك إلاّ مدينة « الحضر » بين دجلة والفرات فهي مبنية بالرجام المهندمة . وتبين أنَّ حصن الأخيضر عتيق جدًّا بعادة بنائه وطرازه وعظمه وسعته ونخامته فهو من الحصون التي لا تبنى بسنة واحدة ولا تستطيع بناءه إلاّ دولة كبيرة قوية ، وعلم أن موضعه كان ميناء للطرق التجارية والطرق الحربية بين الشام والجزيرة والعراق ، وأنه إنما بني للدفاع عن الامبراطورية الساسانية واسترجح كون بنائه على عهد سابور ذي الاكتاف « ٣١٠ — ٣٨١ » هـ وفيه مشابه من إيوان كسرى ، ثم أدخل في بنائه الآجر . وهو معروف عند العرب بحصن عين التمر ، وقد فتحه خالد بن الوليد وبقي في أيدي عرب العراق ورمم غير مرة وأضيفت اليه عمارات وزيدت فيه بنايات .

(بغداد) **مصطفى جواد**

---

(١) ابن الفوطي في الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (ص ٤٧٦) من طبعتنا

(٢) ديوان صفي الدين الحلي (٢٢٥ — ٦) طبعة مطبعة الآداب ببيروت ١٨٩٢ (٣) الرضم والرضام جمعا صخور فيها كبر فاذا زاد كبرها فهي الرجام

بحث لغوي لاهوتي

Mysticism. : التأله

(Gr. Musticos = mystic; from mustés = one intiated into mysteries)

(١) الآراء أو الميول العقلية أو الفكرية أو الشعورية التى ينتحلها المتألهون.

(٢) مذاهب التأله أو روحها أو ماهيتها .

(٣) اعتقاد أن الاتصال بالماهية القدسية ، من طريق التأمل والزهد ممكن.

(٤) الاعتماد على أن الالهام الروحي أو المشاعر العليا السامية ، وسيلة الى معرفة الاسرار التي يعجز العقل عن ادراكها .

(٥) حالة أن يكون المرء متألهاً ، أو من أهل التأله .

(٦) ضرب من الاعتقاد الدينى قائم على التجارب الروحية ، من غير رجوع الى العقل أو الفكر .

(٧) نقيض الاسلوب العقلي (Rationalism) فى البحوث الدينية ، وهو الرجوع الى العقل باعتباره أسمى المواهب الانسانية ، وأنه الموئل في بحث المذاهب الدينية ونقدها ، بخلاف التأله الذي يقضي بأن الحق الروحي لا يمكن ادراكه بموهبة المنطق ، ولا يستطاع التعبير عنه بلغة الادراك . .

(٨) قد يستعمل هذا الاصلاح في مواطن السخرية للدلالة على :

اولا — الاهتلاس أو اختلاط الافكار .

ثانياً — النظريات الفلسفية أو العلمية التى يظن أن فيها هلجاً (١) أو غموضاً يحار فيه العقل .

Mysticism is a phase of thought, or rather perhaps of feeling, which from its very nature is hardly susceptible of exact definition. It appears in connection with the endeavour of the human mind to grasp the divine essence or the ultimate reality of things, and to enjoy the blessedness of actual communication with the Highest.." Encycl. Brit vol. XVII,128.

---

(١) الهلج -- هلج يهلج أخبر بما لا يؤمن به ، والهلج (بالفم) الاضغاث فى النوم (قاموس)

صفحة مطوية

من تراث العرب العلمي

عني العرب منذ اتصالهم بالثقافة الأجنبية بدراسة جميع الموضوعات التي بحث فيها الأقدمون وكان غرضهم في بحوثهم هذه علميًّا محضاً ، يرمي إلى تنقية الآراء التي سبقتهم مما فيها من الخطل والتضليل ، وتأسيس ثقافة عربية إسلامية كان لها الأثر الأكبر في نهضة العالم الحاضرة ، وإذا تفحصنا مناحي نشاطهم العلمي ألفيناها زاخرة بألوان من الدقة والصبر والتجارب التي سمحت بها عصورهم ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن الأمة العربية قد خلفت آثاراً جليلة في ميادين المعرفة عادت على الحضارة بالتقدم والرقي . وقد لا يكون هناك أمة لها ما للامة العربية من تراثٍ خالد وأثر بليغ في سير العلوم ، فلولا نتاج القريحة العربية لتأخر سير المدنية بضعة قرون .

وكان مما عني به العرب علم الهيئة الذي أضافوا فيه إلى آراء من تقدمهم معلومات جديدة واستنباطات مهدت السبيل لروّاد النهضة الحاضرة ، وقد محت عصور الإنحطاط والاضطراب وتقلب الغزاة وضعف الثقافة كثيراً من الآثار المجيدة التي خلفها العرب . وقد عثرنا على مخطوطة في هذا العام وهي موضوع بحثنا وقد تكون فريدة مجهولة ، لأن جميع المراجع التي وصلنا اليها لم تكشف لنا عن حقيقتها أو وجود نسخ منها وهي منسوبة الى صلاح الدين محمد بن محمود المعروف بقاضي زاده الرومي شرحاً على مقالة محمود بن محمد بن عمر المعروف بالجقميني في علم الهيئة .

والجقميني هذا من قرية من قرى خوارزم ، ومن الغريب أن هذا الإسم مجهول ومفقود من جميع المراجع القديمة والحديثة . وكل ما وصلنا إليه هو معرفة الشارح لهذه المقالة قاضي زاده الرومي وهو من علماء الهيئة الذين اشتهروا في القرن التاسع للهجرة وتوفي في سمرقند بين سنة ٨٣٠ — سنة ٨٤٠ هجرية ويعتبره بعض البحاثة من أشهر علماء القرن الخامس عشر الميلادي مع زميله غياث الدين جمشيد اللذين كان لهما الفضل الأكبر في الرّصد في مرصد أولغ بك في سمرقند . وقد درّس مبادىء العلوم على علماء زمانه ثم لازم على شمس الدين « متلافنادي » وقد رغب في طلب العلم على علماء خراسان وما وراء النهر فرحل الى تلك

الديار حيث درس على علمائها العلوم الرياضيـة . وقد اشتهر في سمرقند وذاع صيته فاستدعاه أولغ بك الى سمرقند وقرَّبه وأغدق عليه العطايا وعينه أستاذاً له .

وكان أولغ بك هذا من الذين أولعوا بالعلوم وخصوصاً الرياضية والفلكية منها ، وقد عينه أولغ بك مديراً لمدرسة عالية أثر عنه خلالها أنه كان شديد المحافظة على كرامة العلماء والأساتذة ، مما اضطره إلى الإنقطاع عن التدريس عند ما عزَلَ أولغ بك أحد الأساتذة ، فلم يجد السلطان بُـدًّا من الخضوع لأمره وإرجاع المدرس بعد أن قطع على نفسه عهداً بعدم التعرض لحرية الأساتذة والمعلمين .

وقد أنشأ أولغ بك مرصداً للفلك في سمرقند سنة ٨٢٧ هـ عهد الى قاضي زادة الرومي وغياث الدين جمشيد من علماء سمرقند في اجراء الرصد فيه وتتبع البحوث الفلكية، ولكن القاضي توفي قبل اتمام الرصـد . ولقاضي زاده رسائل نفيسة ومؤلفات قيمة أشهرها رسالة عربية في الحساب وقد ألفها سنة ٧٨٤ هـ وكتاب شرح ملخص الهيئة (المخطوط) الذي نحن بصدده : وله ايضاً رسالة «الجيب» وهي تبحث في قوس ذي درجة واحدة وعدة كتب أخرى. أما المخطوطة التي نحن بصددها الآن فناسخها موسى بن احمد القسطموني من تلاميذ مدرسة حيدر باشا بالقسطنطينية وقد انتهى من نسخها في أواخر شهر جمادى الآخر سنة ١٠٨٦ هـ .

وتبتدىء المخطوطة بافتتاحية جميلة نقتطف منها ما يأتي (الحمد لله الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وبسط على بساط البسيطة ظلاًّ وحروراً. رفع حفراء ذات بروج وسراج، وخفض غبراء ذات مروج وفجاج ، ومدَّ بحراً مسجوراً خلفـه سبع سموات، ومن الأرض مثلهنَّ في ستة أيام . ودبر الأمر يتنزل بينهنَّ على ترتيب ونظام كما كان في الكتاب مسطوراً . وبعد أن ينتهي من افتتاحيته على هذا الطراز من الأسلوب المسجع، يتطرَّق الى بحثه في علم الهيئة حيث يعرّفه على النحو الآتي :

علم الهيئة-: (هو العلم الذي يبحث فيه عن أحوال الاجرام البسيطة العلوية والسفلية من حيث الكمية والكيفية والوضع والحركة اللازمة لها وما يلزم منها). وبعد ذلك يقسم الكتاب مقالتين . ففي المقـالة الأولى يبحث عن أحوال الاجرام العـلوية ، وفي الاخرى عن أحوال البسائط السفلية. والمخطوطة تقع في ١٤٩ صفحة من الحجم المتوسط بخط فارسي مقروء داخل مستطيل خطّ بخط أحمر قانٍ يحيطه بعض المشروحات المكتوبة بخط صغير جدًّا يقرأ بعد عناء. وهو مزين بأشكال بديعـةٍ ملونة للخسوف والـكسوف وأوجه القمر وحركات الاجرام السماوية الى غير ما هنالك من الرسوم الفلكية البديعة .

وبعد أن انتهى الناسخ من نسخهـا أورد بعض التعليقـات على ما جاء فيهـا من الآراء

والأشكال بما لا يزيد عن صفحات الكتاب نفسه استهلها بما يأتي :

«الحمد لله ربّ المشارق والمغارب ، مزين السماء بالكواكب الثواقب، والصلاة والسلام على محمد سيد من خلق في أحسن تقويم وعلى آله وأحبائه ومن اتبع الصراط المستقيم : وبعد فهذه تعليقات على المواضع المشكلات وتنبيهات على رموز المباحث الخفية ، في شرح الملخص في الهيئة لصاحبه ، قاضي الأئمة الحبْرَ المدقق والنحرير المحقق قدوة أفاضل العلماء وصفوة أماثل الأذكياء المشهور بموسى القاضي الرومي .

بعد أن أوردنا ما تقدم من ترجمة موسى القاضي الرومي ومن نظرة إجمالية الى ما في الكتاب ، نتطرّق الآن الى بحث الكتاب نفسه . ففي المقالة الأولى بيان في بيئة الأفلاك التي هي كرات متحركة بالذات على الاستدارة دائماً وما يتعلق بها من الكواكب والحركات والقسي والدوائر وقد قسم هذه المقالة الى خمسة أبواب يبحث فيها عن بيئة الأفلاك . وقد ابتدأ بفلك الشمس وهو يعتقد أن الشمس جرم كري مصمت غير مجوّف ليس له إلاّ سطح واحد. ثم يتطرّق الى حركات الأفلاك الشاملة للأرض على كثرتها . وهي قسمان حركة من المشرق الى المغرب في جميع الدورة، وحركة من المغرب الى المشرق كذلك . وهو يعتقد أن هذه الحركة تنعدم عند خط عرض ٩٠ لأنه لا يوجد هناك لا شرق ولا غرب . أما الحركة التي من المشرق الى المغرب فمنها حركة الفلك الأعظم حول مركز العالم . وأما الحركة التي من المغرب الى المشرق فمنها حركة الفلك الثوابت كالحمل وحركته حركة بسيطة بطيئة حول العالم ويعتقد أنه يتم الدرجة الواحدة من ٣٦٠ درجة من حركته في ٦٦ سنة . ثم ينتقل في بحثه هذا الى منطقة البروج فيقسمها أربعة أقسام ثلاثة منها ربيعية وهي : الحمل والجوزاء والثور. وثلاثة صيفية وهي السرطان والأسد والسنبلة. وهذه البروج الستُ شمالية وثلاثة خريفية وهي الميزان والعقرب والقوس. وثلاثة شتوية وهي: الجدي والدلو (ويسمى ساكب الماء) والحوت وهذه الستة جنوبية . وهو يعتقد أن هذه الأسماء مأخوذة من صورٍ وهمية على المنطقة من كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقعت وقت التسمية في تلك الأقسام . فمثلاً للحمل ثلاثة عشر كوكباً على صور غنم ذي قرنين مقدمه الى المغرب ومؤخره الى المشرق وظهره الى الشمال ورجلاه في الجنوب . وللميزان ثمانية على صورة ميزان كفتاه نحو المغرب وعمده نحو المشرق. وللحوت أربعة وثلاثون على صورة سمكتين ، قد وصل ذنب إحداهما بذنب الأخرى بخيط طويل من كواكب تسمى خيط الكتان وإحدى السمكتين رأسها الى المغرب والأخرى الى الشمال . وعلى هذه الطريقة يورد السبب في تسمية كل من هذه البروج وينتقل بعد ذلك الى حركة القمر الشهرية وما ينتج عنها من أوجه القمر معتمداً في ذلك على

رسوم هي غاية في الدقة والاتقان لا تختلف في شيء عن الرسوم الجغرافية الفلكية في العصر الحاضر. أضف الى ذلك أنه شرح الخسوف والكسوف شرحاً وافياً مع الرسم بطريقة لا تختلف عما هو متعارف في عصرنا هذا .

أما المقالة الثانية فتبحث في الأرض وما عليها فهو ينص على أن الأرض جسم كري. ثم يتمثل على هذا الجسم خطًّا من الشرق الى الغرب. يعرف بخط الاستواء . وخطاً آخر من الشمال الى الجنوب يقسم هذين القسمين أربعة أقسام متساوية إثنان في الشمال واثنان في الجنوب ، وهو يعتقد أن أحد القسمين الشماليين عمار وباقي الأقسام الثلاثة خراب ، وهو يقول ما نصه (يحتمل أن يكون بيننا وبينهم بحار مغرقة وجبال شاهقة تمنع وصول أخبارهم الينا ، غير أن أحد الربعين الجنوبيين قد حكى أن فيه قليلاً من العمارة) وأنا أعتقد أنه يقصد بهذا الربع الجزء الجنوبي من أفريقيا وقسماً من استراليا .

وعند ما يصل في بحثه الى خط الاستواء يورد البلاد التي يمر فيها هذا الخط على النحو الآتي : ساحل البحر المحيط الغربي ويمر على جنوب السودان وشمال جبال القمر التي بها منابع النيل، ثم على صحاري السودان وبواديهم ، ثم على شمال جزائر الزنج ، وعلى جنوب جزيرة سرنديب ويقسم المنطقة الواقعة الى شمال خط الاستواء سبعة أقسام بحسب خطوط العرض. أما الجزء الجنوبي من خط الاستواء فهو أرض محترقة على رأيه ويقصد بالمحترقة أنها خالية من العمار . ويقسم الفصول عن خط الاستواء ثمانية فصول ، صيفان وشتاءان وخريفان وربيعان . وبعد ذلك يأتي شرح بعض المصطلحات الجغرافية فيعرّف السنة الشمسية بأنها المدة التي تمضي بين مفارقة الشمس أي نقطة تعرض من فلك البروج الى عودها اليها بحركتها الخاصة التي لها من المغرب الى المشرق ومدتها ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وخمس وخمسون دقيقة واثنتا عشر ثانية . وأما الشهر القمري الحقيقي فهو مفارقة القمر ، أي وضع يفرض من الشمس الى عوده اليه ومدته ٢٩ يوم ، ٣١ دقيقة ، وخمسون ثانية .

مما تقدم يظهر لنا جلياً ما كان للعرب من التفوق العلمي في القرون الغابرة وقد ظهر عندهم عباقرة استطاعوا أن يقدموا جليل الخدمات للعلم ولذا يجب أن نفخر بعروبتنا ونعتز بحضارتنا وأن نؤمن بكياننا ومركزنا في عالم الاختراع والاكتشاف ، فما من أمة تستطيع احترام حاضرها اذا لم تكن على صلة بماضيها وبذلك لا بغيره تستطيع تلك الأمة أن تشعر ناشئتها بأن لها كياناً محترماً وماضياً مجيداً . وهذا مّا يدفع بالأمة الى الشعور بالمجد والعظمة .

أديب سليم خوري

استاذ الرياضيات بكلية بيرزيت — فلسطين

لا تتعب . !

التعب هبوط ، يصيب عضلاتنا أو أعصابنا ، لرسوب حامض اللاكتيك بها Lactic Acid على أثر اجهاد جثماني ، أو عقلي .

والمتعب ، يكون عرضة للاصابة بالامراض المعدية ، أكثر من غيره ، لان التعب يضعف المناعة .

ومن علامات التعب فقد الشهية . وهذا علاج تفرضه الطبيعة على الانسان . لان الامتناع عن الاكل يتيح فرصة للدم ، لان يعادل الاحماض المتراكمة من التعب في العضلات أو الاعصاب .

والتعب هو العامل الاول فيما يصيب المرء من شيخوخة مبكرة ... وضعف في الاعصاب . كما يخلق من الانسان شخصية ضعيفة متشائمة .

ولتجنب التعب أو ازالته احرص على اتباع التعاليم والارشادات التالية : —

١ — للجسم ، كما للاعصاب والعقل ، طاقة معينة ، فاعمل في حدودها ولا ترهق نفسك

٢ — تعلم فن الاسترخاء Relaxation .. وهو أن تعمل أو تفكر وأنت رضي البال غير متوتر الاعصاب .

٣ — لا تواصل العمل دون فترات للراحة . . بل خذ قسطاً منها . . لدقائق معدودات بين ساعة وأخرى .

٤ — تجنب الرياضة العنيفة ... وباشر اللين منها . . كالمشي والسباحة . . واذا كانت رياضتك من النوع العنيف .. ينبغي أن يدلك جسمك اخصائي في التدليك مرة في الاسبوع على الاقل .

٥ — الحمام الساخن كل مساء يزيل عنك التعب تماماً .

٦ — لا تسكن تعبك تسكيناً وقتيا بالقهوة أو الشاي . بل اجتنبهما لأنهما يزيدان التعب بطبيعتهما الحمضية . . واستبدلها بالكاكاو . . لانه يقوي الاعصاب . . لما يحتويه من مادة الفسفور .

٧ — في حالة التعب اقصر وجبتك على الفاكهة فقط .

٨ — ينبغي أن يتركب غذاءك من ٢٠ ٪ أطعمة حامضية كالسمك ، واللحم ، والبيض ، والجبن ، والنشا والسكر . و ٨٠ ٪ أطعمة قلوية كاللبن ، وصفار البيض ، والفاكهة ، والخضر .

٩ — أكثر من الاطعمة الغنية بالفيتامين B كالخبز الكامل ، والفول السوداني ، والطماطم ، والبرتقال ، والخرشوف ، والبطاطة ، والكرنب .

واعلم أنك اذا عملت بهذا النصح .. فان التعب لا يعرف اليك سبيلا .

فهمي عطا الله

العلم والفلسفة

« الفلسفة » إحدى الكلمات الغامضات التي لا يجني الباحث فائدة تذكر من محاولة ضغطها في حدود تعريفٍ عام . والتفلسف هو السبيل الوحيد للوصول الى معنىً حقيقي للفلسفة . ولما كان الناس على مذاهب شتى في طريقة تفلسفهم ، فلاغرابة إذا قرأنا آراء مختلفة حول موضوعها ، ولا عجب اذا اختلف الناس حول قيمتها الانسانية . والخير كل الخير في ترك مسألة تعريفها تتشكل في ذهن كل فردٍ كلما تقدّم في الدرس والاطلاع ، وتعمق في بحر الفلسفة المتسع الأطراف السحيق الغور . غير أن هناك بعض الملاحظات العامة التي يجب ذكرها للتفرقة بين الفلسفة وبين ثمرة عظيمة أخرى من ثمار العقل البشريّ ، وأعني بها « العلم » .

***

لم تكن الفلسفة والعلم على وفاقٍ تام دائماً . فالعلماء بنوعٍ خاص يستخفون بالفلسفة ، لأنهم عند ما يقارنونها بالعلم ، يظنون أنها حدسٌ محض ، وتخمين صرف ، وأنها لا ترتكن إلى أسس ثابتة وحقائق واقعة كالعلم ، ولا يصل الباحث اليها عن طريق أشياء ملموسة حقيقية ، رهينةٌ نتائجها بالاثبات العملي . ويبدو أن هذا الشعور العدائي بين العلم والفلسفة ، لم يكن متسلطاً في أي وقت مضى كما هو الآن ، ولم يجد سنداً قويًّا وتعضيداً كبيراً إلاّ حديثاً ، وهذا العداء يعدُّ تعرضاً للعلاقة التاريخية الطيبة بين المشكلتين العلمية والفلسفية .

والواقع أننا لانستطيع أن نفرّق تماماً بين الفلسفة والعلم . وسواء أطلقنا على «طاليس»

Thales ومن خلفوه لقب « فلاسفة » أو « علماء » فاننا لا نخطىء كثيراً . والقارىء مخيَّر في إطلاق أي اللقبين عليهم كيفما شاء ميله . وقد كان تقدّم الفلسفة والعلم وتطورهما منذ عصر طاليس الى اليوم ، متضافراً ومتحداً لدرجةٍ لا يمكن معها فهم إحداهما تماماً دون الأخرى . ومعظم العصور الفلسفية العظيمة ، التي كانت أوفر محصولاً فكريًّا وإنتاجاً ثقافيًّا من سواها ، استمدَّت نهضتها من المكتشفات الحديثة عن طبيعة العالم ، وهي التي يعدُّ العلم المسؤول الأول عن كشفها . وقد يتخذ البعض هذه ذريعة لتعزيز مقام العلم ضد الفلسفة ، والقول بأن الفلسفة طفيليّة محضة ، تتخذ النتائج العلمية لغرض التضليل بخيالات وهمية غير جائزة ولا مشروعة . ولكن مهلاً ، فان في هذا إهمالاً لنواحٍ كبيرة الشأن ، وتغاضياً عن نواحٍ مهمة في الحالة الواقعية الراهنة . فبينما نرى ان الكثير من الأعمال العلمية القيمة هي دون شكٍّ من النوع الواقعي الصرف ، ولا نحاول أن نذهب الى ما وراء الوصف بينما نرى هذا ، نرى أيضاً أن كبار العلماء لا يكتفون بهذا ، ولا يقفون عند هذا الحدّ . وهم في هذا كالفلاسفة ، يريدون أن يفسروا نتائج أبحاثهم متبعين طريقتهم هم ، وهم لا يعدّون الوسائل التصورية التي شكلتها الفلسفات الماضية فحسب، بل يعملون في كثير من الأحيان على تطبيق النتائج التي يصلون اليها على العالم ، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة الفلاسفة ، تلك الطريقة التي يوجه اللوم والنقد اليهم بشأنها .

***

ولنبدأ بصفة يشترك فيها العلم والفلسفة معاً ، وهي أنهما ينتجان عن رغبةٍ ذهنيةٍ نزيهة في المعرفة للمعرفة ذاتها، دون عناية بالنتائج المباشرة ، أو مراعاةٍ لجائزة أو ثواب من ورائها. فالفيلسوف والعالم ، كلٌّ منهما يبحث عن الحقائق ويريد معرفة كنهها حتى يشبع رغبته الفكرية ، ويغذي عقله الجائع . الفيلسوف يبحث عن الحقيقة التي يعتقد أنها حق ، دون اعتبار للآراء المختلفة أو النظريات السائدة ، غير أن بعض الفلاسفة لم يتمكنوا من التخلص من القيود التي فرضتها عليهم بيئتهم ، واضطرَّ البعض منهم الى تغيير اتجاه تفكيره في هذا التيار أو ذاك تبعاً للاتجاه السائد . ولكن الفلسفة السامية ، على أي حال ، هي مسألة ذاتية

محضة ، أي أن الفرد يفكر بعقله هو ، ويخلص من تفكيره بنظرياته هو ، فيقال مثلا إن هذه فلسفة ديكارتية أو أفلاطونية أو رواقية ، نسبةً الى ديكارت، وأفلاطون ، والمدرسة الرواقية . وكذلك العالم يبحث عن الحقيقة بكل جوارحه ، ولكنه يسلك طريقاً مخالفاً لطريق الفيلسوف ، وينهج نهجاً آخر .

والفارق الأول بين الفلسفة والعلم ، هو فارقٌ نسبيٌّ لا يمكن تحديده تحديداً ظاهراً ، ويمكننا القول أن الرجل يصبح عالماً حينما يحاول تطبيق القوانين الواقعية ، التي تفسر الحقائق والأوضاع ، على العالم . ويدخل الرجل حدود الفلسفة حالما يأخذ على عاتقه مهمة وضع آراء ونظريات عامة حول طبيعة العالم القصوى ، في جوهرها وكليتها .

والأخيرة تمثل مشكلة الفلسفة الاساسية ، وقد صاغها اليونانيون في قوالب كثيرة منها : ما هي الاشياء الحقيقية ؟ وحينما يسألُ الفردُ نفسه هذا السؤال ، ويحاول الإجابة عنه ، يصبح فيلسوفاً . ولأنّ السؤال يفرض نفسه فرضاً واضحاً على عقل كل فرد يفكر تفكيراً نزيهاً في العالم ، يصعب من الناحية التاريخيّة الفصل بين العلم والفلسفة ، غير أننا نستطيع هنا أن نرسم حدوداً تقريبية تفرّق بينهما . فإذا أراد شخصٌ معرفة العلاقات الفراغية ونسبها ، أو العلاقات الرقمية ، فإنه يصبحُ عالماً أو رياضيًّا . ولكنه إذا سأل نفسه : « ما هو الفراغ ؟ » أو « ما هو الرقم ؟ » ، أصبح فيلسوفاً . وإذا أنكر شخصٌ وجود أي شيء يستحق أن يُسمّى « حقيقة » فإنه يكون قد أصبح فيلسوفاً .

***

والفرق الثاني بين العلم والفلسفة هو أن الطريق العلميّ عمليّ الأساس ، إذ تطبق نظرياته عمليًّا على أشياء ملموسة . أما الفلسفة ، فإن طرقها ليست عمليّة . ويهتمّ الفيلسوف عادة بالنظريات والآراء ، وليس بالحقائق والوقائع . فالجزء الأكبر من مهمّته يتعلق بقدرته على التحليل المنطقيّ ، وحيثما نجد رجالا يهتمون اهتماماً كبيراً بتحليل النظريات تحليلاً منطقيًّا ونقد الآراء بالاسلوب ذاته فإننا نكون مصيبين حينما نسمّيهم فلاسفة . أما العلماء ، فإنهم

يقولون مثلاً إن الهواء الجويّ خليط من الأكسجين والأزوت . وهذا الكلام ليس من تصورات عقولهم أو بديع منطقهم ، بل هو مما أثبتته التجارب وأيدتهُ الحوادث ، ويمكن لأجهل الجاهلين أن يرى بعينيه بعد تجربةٍ عمليّة بسيطة ، أن كلامهم صادق ، وادعاءاتهم في محلها .

***

أما الصفة الثالثة للمشكلة الفلسفيّة فهي صفة أضيق نوعاً وأكثر تحديداً . العالِم كالرجل العادي ، يسلّمُ بأن لنا كمية محدودة من المعرفة ، ويحاول جهد استطاعته جعل هذه المعرفة أقرب ما يكون إلى التمام حتى يمكن الاعتماد عليها . أما الفيلسوف ، فانه لا يسلّم بهذا وسرعان ما يُعمل فِكره ، ويقلّب ثنايا عقله ، لكي يتثبت من صدق هذا الادعاء أو بطلانه . قبل أن يحكم على شيء بأنه حقيقي أم لا ، يجب أن يمرره في مُرَشَّح عقله أولاً ويختبر الطرق التي بها تصيرُ الحقيقةُ معروفةً له كإنسان . لذلك كانت نظرية المعرفة منذ البدء ، عظيمة الشأن للفيلسوف . وإذا رأينا أنظار الناس معقودة على « المعرفة » أدركنا أننا في ميدان الفلسفة وليس العلم .

***

وثمة مشكلة أخيرة تتعلق بالفلسفة ، وهي أعظمها شأناً . وهنا يصبح الفيلسوف على اتصالٍ وثيقٍ برغبات الناس وميولهم عامةً . فكما أن عمل العلوم الطبيعية قد يكون معرفة الحقائق التي يهتمّ علم الطبيعة بها ، كذلك ميول الناس الاجتماعية والنفسيّة فانها قد تتخذ شكلاً عالميّاً وبدلاً من أن يسألوا عن طبيعة الكائن Being ، يسألون عن طبيعة الخير Good والخيرُ نفسه قد يكون نوعاً من الحقائق . وهنا تكون الفلسفة قد انقلبت إلى ما جرينا على تسميته « فلسفة الحياة » . وهذا يعني أننا قد اتخذنا ، مرةً أخرى ، النظرة الذهنيّة النزيهة الناقدة ، بدلاً من الاكتفاء بأنواعٍ معينة من الخير كما يعرفها العامة .

والخير هو الغاية العظمى التي عليها قامت معظم الفلسفات العظيمة السامية ، وهي غاية لو تحققت ، لأعطتنا حلول المعضلات التي من أجلها قامت الفلسفة .

وديع فلسطين

بحث لغوي علمي

الطيور Aves.

الاصطلاح من اللاتينية avis ومعناها طير bird

كل حيوان كسي ريشاً . والطيور تؤلف الشعب (Class) الثانى من شعوب الفقاريات ، أما الشعب الاول من الفقاريات ، فالثدييات . وكل طبقات هذا الشعب منسوب الى الزواحف (Reptiles) ، ولكنها تمتاز من الزواحف بأن دمها ثابت الحرارة ، وان لها ريشاً ، وأن طرفيها الاماميين قد تكيفا فتحولا جناحين للطيران.

وقد يضم بعض المصنفين الطيور الى الزواحف ، ويفردون لها طبقة خاصة ، فيعتبرونها شعباً أعلى (Super-class) ويطلقون عليه اصطلاح (Sauropsida) تمييزاً لها من الثدييات.ومن شعب أعلى آخر يطلقون عليه اصطلاح (Ichthyopsida) ويشمل القوازب (Amphibians) والاسماك (Pisces) .

ومن خواص الطيور : (١) الريش ، والريش بمثابة هيكل خارجي (exoskeleyon) ليس لغيرها من صنوف الحيوان ، (٢) دم ثابت الحرارة ، (٣) دورة دموية مزدوجة كل الازدواج ، (٤) قلب تام التكوين ذو أربع فجوات ، (٥) قوس (أورطية) ذات اليمين ، (٦) رئتان . (٧) مجار هوائية ، تمتد حتى تصير أكياساً هوائية ، وقد تصل متشعبة الى داخل بعض عظام الهيكل (٨) تناسل بيضي ، (٩) احتواء البيض على جزأين : جزء غذائي وهو الاكثر ، وجزء تكويني وهو الاقل . وجزؤه الاكبر غذائي (Meroblastic ويحتوي على مح وزلال ومن فوقهما قيض متين لحفظهما ، (١٠) أربعة أطراف ، تكيف الاثنان المقدمان منها فأصبحا جناحين للطيران بما فيهما من الريش الكبير ، والجزءان الاماميان منها قد عرضا وتكمشا فلم يبق في كل منهما سوى ثلاث أصابع أثرية ، لا مخالب فيها ، (١١) أمشاط قد يكون التحامها كثيراً وقد يكون قليلا . ومن الارساغ رسغان لهما القدرة على الحركة عند البلوغ ، (١٢) عظم قصي كبير زورقي الشكل ، وعضلات صدرية كبيرة قوية ، (١٣) فقارات عجزية قطنية ، وفقارات عصعصية وعجب ، تضامت جميعاً فصارت عظماً عجزياً ، (١٤) عظام حرقفية ممتدة فى الامتداد الى الامام ، وأخرى حرقفية وفخذية امتدت الى الوراء ، بغير مرافق ملتحمة تتوسطها (١٥) تجويف حقي مثقب ، (١٦) مدار للفخذ ذو مفاصل تكون عند اتصاله بالعظام الحرقفية ، والشظية من تحت الفخذ غير تامة التكوين ، (١٧) عظم الكعب ملتحم بالقصبة وله علاقة بتكوين اللقم القصبية ، (١٨) فصل رسغي يتوسط عظام القدم (١٩) عظام وظيفية (نسبة الى الوظيف) منها ثلاث ملتحمة ، وأصابع لاتزيد على الاربع. أما السلاميات فقد تكون ٢ أو ٣ أو ٤ أو ٥ عدا (٢٠) الطرفان المؤخران وقد أعدا للمشي (٢١) ليس للطيور التي نشأت فى الاعصر الارضية الحديثة أسنان ، والفكوك مطلو بمادة قرنية (٢٢) تطورت الطيور تطوراً ضئيلا منذ أول ظهورها في العصر (اليوراسي Juraissc) . أما تصنيفها ، فمن المعضلات التي اختلف فيها ثقات أهل النظر .

السيطرة على القنبلة الذرية

ماذا قال علماؤها بهذا الشأن

منذ رميت القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما وجَفَت قلوب الأمم الكبرى والصغرى لأنها شعرت في الحال انه اذا لم يغيّر الله قلوب الناس فالعالم كله على شفا الدمار . وكانت روسيا أشد الدول وجوفاً لأنها كانت تحسّ أن محالفتها مع انكلترا وأميركا ليست متينة ، وما هي بمحالفة صداقة خالصة . بل هي محالفة نفعية مبنية على التوفيق بين المصالح حتى اذا ضعف هذا التوافق انحلت المحالفة، فكيف بها إذا اختلّ التوازن بين قوتي جانبي الحِلف بوجود القنبلة الذرية التي يحتكر سرَّها جانب واحد . لذلك طلبت روسيا وفرنسا والصين أن تبوح انكلترا وأميركا لها بسرّ القنبلة ، وإلاّ فهنّ لا يأمنّ جانبهما بل يحق لهنّ أن يسئن الظن بهما . فما معنى أن تكتما السر عن حليفتيها إذا كانتا مخلصتين في المحالفة . وإلاّ فإنها محالفة بين الدب والأسد .

واحتدم نقاش الدول الخمس بهذا الشأن الى أن اتفقنَ مبدئيًّا على أن يودع السر في مجلس الأمن الذي تنتخبه هيئة الدول الاحدى والخمسين المتحدة .

وكان من جرّاء هذا التنازع على سر القنبلة أن اضطرب جميع مفكري العالم وساسته لأنهم رأوا أن العالم يبقى تحت رحمة الدولة التي تحتكر هذا السر . وإذ ذاك ينتفي توازن العدل الاجتماعي ويتزعزع الأمن العام .

وكان الشعب الاميركي أشد الشعوب اضطراباً بسبب طلب الدول الثلاث الاطلاع على السر ، لأن هذا الشعب وهو صاحب السر الأول يفقد قوة الدفاع عن نفسه إذا انفضح السر لسائر الدول الكبرى أو للعالم أجمع . وهو يزعم انه لا يهدد العالم بقنبلته لأنه لا يطمع في أكثر من أن يكون أقوى الأمم بالدفاع عن النفس ولا يطمح الى فتح أو استعمار. فلذلك

لا يضمر اعتداءً على حقوق الأمم الأخرى . إذن فلا خطر على الأمم الأخرى منه . هذا ما يزعمه الشعب الأميركي بلسان ساسته وكبرائه . ولكن الدول لا تطمئنُّ الى هذا الزعم إذا لم يكن ثمت قيدٌ لأميركا يحظر عليها أن تخون عهدها . ولو كان الصدق شيمة الدول لما صارت المواثيق الدولية منذ عهد غليوم الثاني قصاصات ورق لا قيمة لها .

ثم اشتدَّ اضطراب الشعب الأميركي واستحال اضطرابه الى خوف حين صرَّح العلامة أوبنهمير رئيس لجنة العلماء الذين صنعوا القنبلة انه إذا أُبيح سرُّ القنبلة للأمم الأخرى ثم صنعت أية دولة قنبلة ضخمة متقنة وهاجمتنا على غفلة قتلت منا ٤٠ مليون نفس دفعة واحدة » . فجزع الأميركيون لهذا التصريح المرعب وقالوا : إذن فلا نسلم سرَّ قنبلتنا لأحد لئلاَّ نقع تحت رحمة أية دولة عالمة بالسر . بل يجب أن نحتفظ به لأنفسنا. واشتد توجُّسُهُم حين رأوا أن التجنيد عندهم لا يزال جارياً كما كان في زمن الحرب ، والترسانات لا تزال تصنع البوارج وملحقاتها ، ومعامل الطائرات الحربية لا تزال تصنع طائرات كأن الحرب التالية على الأبواب .

ورجال الحرب لا يفكرون الآن إلاَّ في كيف يستعدون لكي يكسبوا الحرب القادمة لا في كيف يدافعون عن البلاد . وفي رأيهم أن القنبلة الذرية ليست إلاَّ توسعاً في السلاح فاذا لم يكن للعدو قنبلة مثلها فعنده القنابل الطائرة والصاروخية وغيرها من الأسلحة الجهنمية فكسب الحرب لا يقتصر على القنبلة الذرية وحدها .

ويقترح النائب كلاير بوث لوس أن تكفَّ الحكومة الأميركية عن اللغط في هذه المسألة وفي شؤون الجيش الحربية والبحرية والجوية وأن تقصر همها على انشاء مخابىء عميقة تحت الأرض ضد قذائف الطائرات والقنابل الصاروخية والطائرة والذرية وغيرها لأن سر القنبلة الذرية لن يبقى مكتوماً وان لم نبح نحن به فالأمم الاخرى تبحثه وتهتدي اليه . ويقترح آخر ان تجزَّأ المدن الكبرى الى مدن صغرى مشتتة لكيلا يكون التدمير « بالجملة » وهو مشروع يكلف الأمة مالاً جمًّا .

وقد زاد طنبورهم نغمة أن رئيسهم ترومان صرَّح بعد ذلك في الكونجرس انه لا يعتقد ان أميركا تستطيع أن تحتفظ بالسر لنفسها . ولذلك يرى أن يفاوض الدول في جعل السر في

عهدة هيئة دولية عليا . ومن ثمت انتهت المفاوضة بين الدول الخمس الكبرى بأن يودع السر في عهدة مجلس الأمن الدولي بشروط وقيود وعهود وثيقة .

واقترح العلامة الدكتور هارولد أوري أن تفرض هيئة الأمم على كل أمة أن تبلغ الأمم الأخرى عما يجدّ عند علمائها من التقدم في بحث الذرة وفي أي بحث علمي يمكن أن يستخدم في التسليح ، وأن تعيّن لجنة من العلماء للتفتيش في المعاهد العلمية الدولية . ولكن ليس كل العلماء يعتقدون أن التفتيش ممكن وانه يضبط كل سر علمي .

وأما رجال السياسة فيعتقدون أن أفضل حل لمسألة اتقاء الخطر من القنبلة سواء كانت مع أميركا وانكلترا أو مع غيرهما هو أن تكون الأمم جمعاء دولة متحدة واحدة تسيطر سيطرة عمومية على كل قوة علمية واجتماعية واقتصادية . ولكن ان أمكن تحقيق هذا الحلم فبالطبع تكون الأمم كلها أمة واحدة والأمة الواحدة لا تقاتل نفسها . هل يتحقق هذا الحلم السعيد ؟ ومتى ؟

على ان هيئة الأمم المتحدة التي تمخضت عنها هذه الحرب الشعواء يمكنها أن تقوم مقام الدولة المتحدة المقترحة بل هي دولة الدول ولاسيما لأنها ستكون مسلحة فتستطيع السيطرة بكل أمانة . والقنبلة تكون من جملة أسلحتها — اللهمَّ اذا كانت نيات رجالها صالحة .

وفي ابان هذا الصراع السياسي حول هذه القنبلة الجهنمية كان بعض البارزين من العلماء والساسة وأصحاب الأشغال يقترحون أن يتولى البحث الذري جماعة من العلماء يتقيدون بقيود تحد من حريتهم في البحث . وعليهم أن يحلفوا اليمين بأنهم لا يبوحون لأحد بما ينتج من أبحاثهم .

وكان من جرّاء ذلك أن كثيرين من ذوي الرأي يلقون مسؤولية القنبلة الذرية على رهط العلماء الذين اشتغلوا بها . أي انه اذا أصاب أميركا ضررٌ من جرائها كانوا هم سبب هذا البلاء .

وكيف يكون جزاء سنمار غير هكذا ؟ لما كان العلماء يشتغلون في تحطيم الذرة أو فلقها لم يكونوا يعلمون أن المطلوب من بحثهم اختراع قنبلة تدمّر البلاد فلا تبقي ولا تذر . بل كانوا يظنون انهم يشتغلون في معهد علمي على حساب الحكومة لكي يتوصلوا الى استخراج

الطاقة من الذرة لأجل الانتفاع بها كما انتفع العالم من استخراج القوة من البخار والكهرباء ومساقط الماء الخ . فمثل الناس في اتهام العلماء بإضرار القنبلة الذرية كمثل العمال الذي نقموا على العلم لأنه أفضى الى اختراع الآلات المختلفة التي حلّت محل العمّال . فقالوا : لعنة الله على العلم وعلمائه . فهو سبب فقرنا وغنى أصحاب المعامل وجهلوا أن سبب فقرهم هو النظام الرأسمالي . هكذا حظ علماء الذرة من علمهم أن يلقي العالم عليهم تبعة خراب العالم . وهم ، « يا غافل لك الله » لم يكونوا الاّ قليلهم يدرون انهم يشتغلون بصنع قنبلة ذرية . وما علموا ماذا كان يرمي اليه بحثهم الاّ حين مسحت القنبلة الأولى هيروشيما . والى الآن لا يعرف سر القنبلة التكنيكي الاّ بضعة منهم يقال انهم لا يتجاوزون البضعة الصغيرة . فلذلك هبت ثمانمئة من كبار العلماء يدافعون عن زملائهم وعن حريتهم في البحوث . وكتبوا ونشروا مقالات الدفاع . واتجهت آراؤهم الى الكونجرس (البرلمان) اذ تقدمت اليه في شهر مايو لائحة بشأن السيطرة على سر القنبلة الذرية . وكان منهم جميع العلماء الذين اشتغلوا بالذرة في جامعة شيكاغو . ثم اختارت من بينهم ثلاثة من هؤلاء العلماء الكبار لكي يصوغوا مذكرة دفاعهم ، وهم دكاترة العلوم والفلسفة : دايفد هل ، عالم طبيعي ، ويوجين رابينوتشي عالم كيماوي طبيعي ، وجون سمبسون عالم طبيعي بحّاث في نواة الذرة . وهاك ملخص مذكرتهم : —

كان العلماء يتوقعون أن تكون نتائج بحوثهم معمّرة لا مدمّرة ، وترمي الى سعادة الجنس البشري . وكانوا يجتهدون أن تصبح سيطرة الانسان على مواد الحرب في خبر كان وفي كل حال لم يكن العلماء مسئولين عن نتائج أعمالهم إذا وُجّهت الى التدمير لأن هذه المسؤولية تلقى على عاتق حكومات بلادهم .

وهناك سببان جوهريان لاخلاء العلماء من كل مسؤولية . الأول : لم يلق أحد على علماء الزمن الماضي مسؤولية قط عما نتج من مباحثهم من قوات التدمير كالمتفجرات وسواها وان كانت لهم اليد الطولى في اعتقالها . ولم تنتج القنبلة الذرية من عقول العلماء الحاليين فقط بل تقدمتهم عقول علماء سابقين من عهد نيوتن الى اليوم كانوا يبحثون في الذرة فتنبه رجال الحرب الى أن في الذرة قوة هائلة لم يحبها العالم من قبل . ولو لم يقتنع رجال الحرب بعظم

هذه القوة لبقينا في دور البندقية والمدفع والقنابل الصاروخية والطائرة .

الثاني ان نجاح صناعة القنبلة الذرية يختلف كل الاختلاف عن اكتشاف البارود والديناميت والغازات السامَّة حتى عن الرادار . القنبلة الذرية هي أول خطوة خطاها الجنس البشري في خروجه من العالم القديم الذي كان يسمَّى العصر الالكتروني (الكهربي) الى عصر جديد يسمى العصر البروتوني (الكهربي) أو عصر نواة الذرة .

ان العصر الالكتروني صاحب الفضل في نجاح الأعمال الكيميائية والكهربائية ، في بدننا ، وفي معامل الطاقة ، وفي آلاتنا وصواريخنا . وأما قوة نواة الذرة فهي سرّ حياة النجوم وموتها .

(ولهذا القول شرح طويل عريض أتمنى أن أشرحه إذا كان مجال المجلة يسمح به)

العلماء لم يوحوا السياسة للساسة ، ولا أرشدوا رجال الحرب الى وسائل الهلاك والتدمير بل هم أعانوا الانسان في الخطوة الأولى للعالم الجديد الذي نحن بصدده — عالم الذرة — وعليهم تحذير الانسان ونصحه الى أن يدرك أخطاء هذا العالم الجديد فيما هو يندهش من عجائبه . لقد عاش العلماء مع القنبلة الذرية بضع سنين وفكروا بمستقبلها وما تنطوي عليه من الشر والخير للجنس البشري قبل أن يفهم العالم شيئاً من هذا فن واجباتهم وهم يعلمون خطرها الهائل أن يعيدوا أبناء الناس الى احضان والديهم سالمين وان يبلغوا التحذير من الخطر الى جميع العالم .

من جملة واجباتنا أن نبسط آراءنا فيما يختص بسلامة شعبنا وسائر شعوب العالم . فلنفكر في الأسئلة التي لاحت في ألباب الناس وتساءلوا فيها بشأن هذه القنبلة وما يقتضيه الدفاع الوطني ، وندرسها ونجاوب عليها .

١ — هل يمكننا أن نضبط السر ؟

يتراءى للكثيرين ان للقنبلة الذرية وصفة Formula سرية يمكن الخائن أن يعطيها لجاسوس لقاء ثمن أو ان الأمين عليها يبتلعها قبل أن يغتصبها منه جاسوس . والحقيقة انه ليس لها سر أساسي يحفظ أو يعطى . ولو أمكن هتلر أن يحول سنة ١٩٣٩ دون طبع الرسالات الأولى التي كتبت عن تحطيم الذرة لبقيت المانيا وغير المانيا مدة طويلة

محرومة سر القنبلة . لم يتلف هتلر تلك الرسالات لأنها لم تكن كلها تحت يده في المانيا وإنما هو اضطهد بعض محرريها من العلماء وشرَّدهم وطردهم ففرُّوا الى انكلترا وأميركا وصنعوا ما كان يتمنى هتلر أن يصنعوه له لو عقل ولم يركبه الغرور الأهوج . وكان من حظ العالم أن هذا لم يحدث وان الحقائق العلمية الأساسية بهذا الشأن كانت في أيدي علماء أوروبا وأميركا حين شبت الحرب .

لما ابتدأت الحرب لم يكن لغير الولايات المتحدة القوة العلمية والمعدَّات التكنيكية والأمان من تحايل العدو للحيلولة دون استعمال هذه المعدَّات بالقدر الكبير الذي يكفل النجاح فضلاً عن البذل بسخاء كلي لأجله . وأما الممالك الأخرى فلم يكن في وسعها الاَّ أن تقتصر على المعامل التجريبية أو الثقافية في البحث والعمل لهذا الغرض أو لاستخراج الطاقة. وقبل أن تطرح القنبلة الأولى لم يكن علماء الممالك الأخرى يظنون أن في الامكان توسيع المعامل البسيطة الاعتيادية الى معامل عظمى مهيَّأة لتخطي كل عقبة تقوم في الطريق . ولكن لما حدث الانفجار في هيروشيما اضمحلَّ ذلك الظن ولم يبق شك في أن هذا المشروع الخطير ممكن عمليًّا وثبتت به صحة النظرية الالكترونية .

أطلقت وزارتنا الحربية والحكومة البريطانية أيدينا في العمل وجهزتنا بكل مادة وقوة لازمة له . فكنا نعمل أحراراً . وكان شركاؤنا من الدولتين يطلعون على أعمالنا ونتائجها ولم تكن الحكومتان لتبوح الاَّ بالنتائج السطحية . وانما الأمور الجوهرية بقيت محفوظة معنا . وقليلون منا هم الذين كانوا يطلعون عليها ، ولكن هذه المحفوظات عندنا لا تسمى سرًّا وان كانت مكتومة عندنا . فيمكن الأمم المتنافسة في بحث الطاقة الذرية أن تتصل اليها أو الى ما يضارعها إذا بذلت المجهودات العلمية والمادية والمالية بضخامة عظمى كما بذلناها نحن على أن اطلاع الذين يحاولون هذا العمل الشاق على أشياء من معلوماتنا يوفر عليهم كثيراً من المجهود العلمي والعملي ويختصر طريقهم الى النجاح .

لقد جاهدنا ثلاث سنين في تحويل المعلومات النظرية الى التطبيق العملي . فجميع النظريات العلمية تمحصت وخص عنها حتى صفت منها القنبلة الذرية ، فأكدت صحة النظريات العلمية الأخيرة .

فلذلك نظن أو نعتقد أنه في بحر ثلاث سنين أو خمس على الأكثر يتسنى لكل أمة تشتغل بجد أن تنجح في صنع القنبلة الذرية. لأن المعلومات عن تركيب الذرة وحركات جسيماتها وتركيز الطاقة فيها كانت معلومة وأصبحت شائعة

إذن فلا أهمية كبرى لكتم السر .

٢ً — هل يمكننا أن نحتكر المواد الاولية ؟

لكي نستطيع احتكار صنع القنبلة الذرية يجب أن نحتكر مادتها الأولية. يجب ان تكون مناجم الأورانيوم تحت يدنا دون غيرنا . ولما كانت المناجم مشتتة في جميع بقاع الأرض فلا يمكننا أن نملكها الاَّ بالفتح الحربي الساحق . فهل يمكننا أو يمكن غيرنا هذا ؟ كندا وبلجيكا تملكان أهم مصادر الأورانيوم التي كانت معروفة قبل الحرب . تشكوسلوفاكيا تملك مناجم سنت جوشيمستال القديمة . وقبل الحرب كانت روسيا تستخرج قدراً كبيراً من الراديوم وهو ابن الأورانيوم . وبعد ذلك اكتشفت مناجم الأورانيوم في أماكن أخرى وسيكشف غيرها . والكرة الأرضية واسعة فلا يمكن أن تكون بقاعها الأخرى محرومة من هذا المعدن . وحيثما يوجد منجم رصاص يوجد معه منجم أورانيوم على الغالب لأن الرصاص هو رماد الراديوم والراديوم هو وليد الأورانيوم بعد أن ينتهي إشعاعه .

إذن فلا نحن ولا بريطانيا تستطيع أن تجرد الأمم الأخرى من حق الحصول على الأورانيوم .

٣ً — ألا يكفينا أن تكون لنا الزعامة في التوسع باستخراج الذرة ؟

نحن لا نناقش في الأسبقية أو الأولوية في استخراج الطاقة الذرية . وانما نحن ننكر أن هذه الأسبقية تقدرنا على الحصول على الأمان المطلق من غدر إحدى الأمم الاخرى بنا .

ان التنافس في التسليح الذري هو غير التنافس في التسليح البري أو البحري أو الجوي. في هذا الضرب من التسليح يمكن الدولة الواحدة أن تبزَّ الاخرى فتبني مثلاً بارجتين في حين أن الاخرى تبني واحدة فقط . وأما التسليح الذري فلا يستعمل إلا لتدمير كبيرات المدن ومعامل التسلح . فلذلك إذا كان لكل من العدوتين قنابل ذرية كافية أمكن كلاًّ منهما

أن تمسح الاخرى عن وجه الارض في وقت واحـد . إذاً فالقنبلة الذرية لا تضمن سلامة المعتدى عليه ولا المعتدي .

القوة الصناعية التي عندنا وقد حسمت الحرب في ساعة واحدة لا يحسب لها حساب كبير في حرب أخرى إذا كانت معظم الدول تصنع القنبلة الذرية مثلنا . وإذا كانت نتيجة التدمير الذري تحدث في ساعة واحدة في الجانبين فلا تتوقف على كثرة ما عند الواحدة من القنابل أو قلته دون الاخرى بل تتوقف على الضربات الاولى في الساعة الاولى . وهي ميسورة لـكلا الجانبين . إذن لحرب الذرة لا تكون حاسمة بل تكون فناءً متبادلاً (رحمـة الله على ذوي السلاحين مقدماً) .

بناء على ما تقدم نقول أن دولة كأميركا ديموقراطيـة محبة للسلام وتكره الخصام ، هي أمة صناعية من أول درجة ولـكنها مترامية الشواطىء متجمعة في مدن ضخمة . إذن فهي في ظروف غير أمينة في حالة الحرب ومصلحتها تقضي عليهـا بالمحافظة على السلم العالمي على الاطلاق . فلا يمكن أن تعتدي على أحد .

٤ — هل الخوف من الانتقام أو من الاعتداء يمنع الحروب الذرية ؟

إذا كانت أمة تخاف من اعتداء أمة أخرى عليهـا للانتقام أو لتوجسها منها فتستعد للهجوم المفاجىء عليهـا لئلاَّ تسبقها هذه على حد قولهم الضربة لمن سبق ، فعالم مملوء من الايجاس والتخوف من المفاجآت العدائية يدع الجو السياسي مكفهراً على الدوام ويجعل العالم في أزمة عاصفة لا نهاية لها . فكيف يعاش في عالم كهذا ؟

هذا التخوّف يجعل جميع الامم دائمة النشاط في صنع القنابل الذرية إذا كان سر القنبلة مفضوحاً وصنعها مباحاً بلا قيد ولا شرط .

٥ — هل تمكن الوقاية من القنبلة الذرية ؟

في الحروب الماضية ولا سيما الأخيرة لم يكن اتقاء شر الأسلحة الحربية كافياً للوقاية ولا كان منتظراً أن يتحسن أحسن مما كان . وأما في الحرب الذرية فلا يمكن تحسين الوقاية بشيء

حتى ولا بالمخابىء (الاَّ اذا كانت عميقة جدًّا) كما علمنا من نتيجة ضرب هيروشيما وكازاناجي فقد انتفضت الأرض انتفاضاً بما فوقها وتحتها .

وحتى الآن لم تلح في البال طريقة خاصة لنسف القنبلة الذرية وهي في الجو قبل أن تقع على هدفها . الوقاية الممكنة هي تدمير حاملة القنبلة وهي في طريقها قبل أن تصل الى مقصدها. ولكن لما لم يكن من علم سابق بقيام طائرة حاملة قنبلة ذرية، إما لأن الحرب شبت فجأة من غير سابق انذار أو لجهل مكان قيامها واتجاهها. فليس من السهل ان تُضرَب حاملة القنبلة قبل وصولها الى هدفها . وإذا كانت الصواريخ السريعة محملة قنابل ذرية وهي مقذوفة الى نواحٍ مختلفة متعددة فلا وسيلة لاتقائها حتى ولا لاكتشاف سيرها بواسطة الرادار أو أية وسيلة أخرى .

فالطريقة الفضلى للوقاية هي أن كل أمة تشتت مصانعها وتفرّق مدنها حتى لا يكون التدمير شاملاً . وهذا أمر متعذر في هذا الجيل .

اذن فالنتيجة القصوى هي أنه ما من أمة كبيرة أو صغيرة قوية أو ضعيفة تستطيع أن تتقي شر القنابل الذرية . لذلك ستكون كل حرب قادمة حرب فناء . فلعلَّ هذه الحقيقة تصد الناس عن الحروب وترغم الأمم على الاتفاق والدول على تسوية المشاكل بالوسائل الودية .

***

٦ً — هل يمكن أن يتقيد استعمال القنبلة الذرية بقانون دولي ؟

قياساً على اتفاقات نزع السلاح بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ وميثاق كيلوج لجعل الأعمال الحربية والاستعدادات لها مخالفة للقانون الدولي لا يمكن أن تطمئن أمة على مستقبل سلامتها اذا احتمت بمعاهدات دولية مهما تأيدت هذه المعاهدات بالايامين الرهيبة بغية أن تقصي من الساحة الدولية شبح « الحرب الذرية » وتترك تنفيذ هذا العهد لضمائر الدول التي وقعت عليه . لا معاهدة بشأن تحديد التسليح وتقييده أو الغاء التسليح الذري على الاطلاق يمكن أن تعتبر عهداً موقراً مقدَّساً خطير الشأن اذا لم يؤيد بسيطرة فعالة لمنع كل محاولة لمخالفة العهد

الوسيلة الوحيدة لصد أية أمة رعناء عن تدمير حضارتنا الحالية هي اقامة سيطرة دولية

مشتركة عامة على صنع الطاقة الذرية في أي مكان على الاطلاق . ومنع صناعة القنبلة الذرية بتاتاً لا يكفي أن يجعل استعمال القنبلة الذرية جريمة مخالفة للقانون الدولي ، بل يجب أن تقام سلطة دولية نافذة للسيطرة على الطريقة التي يتحتم بموجبها أن لا تشغل معامل الذرة الاَّ لاستخراج الطاقة للاعمال النافعة ، وترغم كل أمة أن تحترم هذا العهد .

بيد أن محاولة اقامة هذه السلطة وانشاء هذا النظام تخلق قضايا أو مشاكل دولية جديدة لم يسبق لبعضها وجود في تاريخ علائق الامم قبلاً . ويجب أن تفحص هذه المشاكل جيداً قبل أن تتخذ الولايات المتحدة خطة سياسية في علاقاتها الخارجية وشؤونها الداخلية

ان جمعية العلماء في شيكاغو أو في بلدة « جرف البلوط Aok Ridge » (حيث كان العمل الاكبر في القنبلة قائماً على قدم وساق مدة ٣ سنين) كانت تعارض في كل تشريع بشأن الطاقة الذرية (لا القنبلة) قبل أن تجري التحقيقات البرلمانيــة من كل قبيل . ان السياسة الحكيمة الراسخة يجب أن تؤسس على الرأي العام المطلع على حقائق الامور ويجب أن يصوغها الكونجرس (البرلمان) بعد أن يطلع على كل ممكنات العصر الحديثة والمعقدة .

***

يسأل العلماء كيف يكون الامر في حالة التماس أية أمة أو أي عالم أن يسمح لهـا أو له بالاشتغال في استخراج الطاقة الذرية للانتفاع بها في حالة السلم .

وجوابنا أن هذا يتوقف على أية درجة بلغ اليهـا خلو العالم من شبح الحرب الذرية ، يمكننا أن نوجه أنظارنا بثقة الى المنـافع التي تأتي بواسطة منتجات العناصر الاشعاعية الراديوجرافية التي تضاف الى العلم والصناعة والطب الخ ما دامت المعـامل الذرية الصغيرة تكفي لتموين العلماء والأطباء والمهندسين والمدرّسين بالآلات والمواد اللازمة .

انه في عالم حرّ من الخوف من الحرب يمكن أن تعطى حرية تامة للتوسع في مشروعات الطاقة الذرية بالقدر الكبير .

نقولا الحداد

دون جوان العرب(١)

عمر بن ابي ربيعة

مهداة الى الصديق الاستاذ حسين الغروري
تحية اعجاب بقوله : « ان الفنان
يُحيل أحداث حياته الى فن كما يحيل
النحل ريق أزهار الحقول الى شهد »

محمد فهمي

عمر بن ابي ربيعة من الشعراء القليلين في الادب العربي الذين يتميز شعرهم بالصدق وقد أكثر في شعره من وصف مليحات العرب المترفات والتشبيب بهن وكثرت غزواته لقلوبهن حتى كان له من الشهرة وذيوع الصيت ما جعله على أفواه الناس في عصره فافتتن الكثيرون من الرجال بشعره ومن النساء بشخصه . وقد تخيله المؤلف في هذه القصة بعد البعث في الدار الآخرة

الفصل (١) المنظر (١)

منظر الفردوس في الصباح حدائق وبساتين مزينة أجمل زينة احتفالا بقدوم عمر بن أبي ربيعة الى الجنة بعد اطلاق سراحه من النار وجماعات الخالدين وأكثرهم من نساء الانس في طرب وحبور حيث تسمع موسيقى وأنغام وأصوات موكب قادم على البعد . ويرى في جانب المسرح بعض من حور الجنة وقد اجتمعن لمشاهدة الموكب.

حورية لأخرى — أنظري يا سندس ما كنت أعتقد أن الآنسيات ذوات الخفر يُبْـدين كل هذا السرور !

سندس — استمعي يا نشوة لسذاجة غَيْـدانه .... ذوات الخفر؟ .. أنى نزواتهن لاحد لمداها . . .

حورية أخرى — (بغمزة عين) سيما اليوم !

حورية — كم انتظرنَ هذا اليوم بفارغ الصبر !

---

(١) من كتاب قصص « دون جوان العرب » يصدر قريبا : تأليف الاستاذ محمد فهمي

حورية لأخرى — (بغمزة ذات معنى) ليحتفلنَ بقدوم من كان أثيراً لديهنَّ في الدنيا

حورية — يقال إنه سيأتي الخلد بنوع طريف من الحب .

حورية — وقيل إن في هذا الحب شقاءً لذيذاً

حورية — بل سمعتُ إنسيّـة تقولَ إنه سيوقد في قلوب الغيد ناراً . . .

حورية (بفزع) — نار ؟! . . . أعوذ بالله . . قد نجانا الله منها.

حورية (باسمة) — نارٌ بيضاء يا غبية ! !

— — والنار الأخرى ؟ !

— — تلك حمراء تحرق الأجسام أما نار الحب فتطهر القلوب (ثم تضحك)

حورية أخرى — سمعتهنَّ يتحدثنَ عن نارَ ذلك الحب بأنها شديدة الألم شديدة اللذة معاً هي الجنة والنار في آن ! !

أخرى — الجنة والنار من خلق الله سبحانه !

أخرى (باسمة) — جنة ونار للقلب ياغريرة . .

أخرى — والله لتصيرنَّ في الخلد فتنة !!

أخرى(ضاحكة) — فتنة لذيذة ! !

(وهنا تكون ضجة الموكب قد اقتربت وتسمع موسيقى وغناء وأصوات تهليل وفرح)

حورية (بفرح) — ها هو الموكب قد أقبل .

حورية لأخرى — أنظري اليه يا مفاتن أنه هناك على فرسٍ أشهب يحف به الخالدون .

مفاتن — آه . . : ذلك المشرق الوجه معتدل القوام !

حورية أخرى — ان ملامحه تنطق بكل معاني النُّـبل .

حورية — عجباً وإنها لتزداد مع التأمل فتنة ! !

حورية — يقولون إن حديثه فنونٌ من السحر .

حورية — والأخطر منه معاشرته إذ سمعت أنها كالنار من مسَّـته تركت فيه وشمها الى الأبد .

حورية لأخرى (بلهفة) — ها هو يبتسم أما ترين ثنيَّـته المكسورة ؟!

– — إنها لتزيده ملاحة .

حورية — يقولون انها كُسرت في حادث غرام ! !

حورية — هُسْ . . ها هو الموكب قد شارف الربوة انظري يا سندس اليه وقد ترجّل تأملي مشيته !

سندس — كم توحي بالجلال والمهابة !

غيدانة — يقال إنه من أنبل عائلات قريش

(وهنا يصل الموكب الى ربوة من ربى الخلد حيث يجلس عمر بن أبي ربيعة على احدى الارائك تحت ظلة من ظلال الفردوس وقد أقبل عليه حبيباته في الدنيا للسلام)

تتقدم إحداهنّ — سلامٌ على ابن ابي ربيعة :

عمر (متهللاً) — أهلاً هند . أنت هنا ؟ شكراً لله . . . ما كل هذا الحُسن ؟ أتُشعلينها أيضاً في الخلد فتنة ؟ !

هند «ضاحكة» — في كل مكان . . . هذه رسالتنا

أخرى — سلامٌ على ابن ابي ربيعة .

عمر — والثريا ؟ أهلاً بربة الدلال . ما أسعدني ! !(ثم متنهداً) إيهٍ ثُريا القلب !

أخرى — سلام على المُغيريّ !

عمر — يامرحباً بنعماي . . . سلِمْتِ ودام سحر لحاظك !

عائشة — حلّ الربيع بالفردوس يا أبا الخطاب .

عمر — أهلاً أهلاً بربيع الحُسن وفتنة البدو والحضر !

عائشة «ضاحكة» — هكذا ؟ ! . مازلتَ أنتَ هو أنتْ ! . . . ليس في الخلد مكانٌ اشباك إغرائك ! ؟

عمر (باسماً) — بل في كل مكان حيثما يوجد الحُسن « ثم ضاحكاً » هذه رسالتنا . . ! !
(عمر ملتفتاً الى بعيد ثم منادياً) — أقبلي أقبلي ياحبابة ما أكثر وفاءك فلقد روّيتِ التراب بدموعك حُزناً على فراقي الدنيا .

حبابة «ضاحكة» — أنا . . . ! ؟ من أخبرك ؟

عمر — لا تُنكري . . . هنا تتكاشف القلوب .. هيا تناولي مِزْهَرك واسقينا خمر أنغامك ! !

عمر ملتفتاً: ثم «هاتفاً في دهشة» — والرباب هنا ؟ أهلاً أهلاً بقُرَّة عيني . الآن طاب لي الخلود .. !

(الرباب تختفي بسرعة خلف خميلة من خمائل الجنة)

(في الجانب الآخر من المسرح)

حورية لأخرى — أرأيتِ تلك الإِنسية ؟ ظلَّت تتبرَّج له بفنون الاغراء فاذا ناداها اختفت في الخمائل .

حورية (بتهكم) — هكذا كان شأنهنَّ في الدنيا

حورية — وبهذا كنَّ يستثرنَ أقوى غرائز الرجال

حورية — هيا نجرب ذلك هنا .

حورية — لم يأمرنا به الله .

حورية — الله أمرنا أن نمتّع الخالدين وهذا مما يزيدهم متعة .

حورية — ولكنه شيء جديد . ربما لو فعلناه خالفنا ارادته سبحانه

حورية — كلاَّ ... لأننا لو فعلناه فمعناه انه كان مكتوباً في الأزل .

حورية — أنا لن أفعل .

حورية — أما أنا فسأجرِّب

أخرى — هس ... ها هي حبَّابة بدأت تغني

(وهنا يسمع توقيع موسيقى ثم غناء من شعر ابن أبي ربيعة)

ما بال قلبك ما يزال يُهيجه ذِكَرٌ عواقب غِبهنَّ سقامُ
ذِكَرُ التي طرقتك بين ركائبٍ تمشي بمزهرها وأنتَ حرام

(ستار)

المنظر (٢)

(تسمع موسيقى ساحرة بضع لحظات قبل رفع الستار ثم يرتفع الستار قليلا قليلا (والموسيقى تعزف) عن بهو بديع في فيلا جميلة وسط خمائل الجنة حيث يشاهد عمر بن ابي ربيعة في جماعة من أصحابه جالسين في مرح وحبور في مجلس شراب أمامهم الكؤوس والزهور والرياحين وحولهم الولدان المخلدون في ملابس زاهية فاتنة يحملون الدنان والاباريق مرصعة بالجواهر واليواقيت ويرى في صدر البهو مسرح تجلس عليه الفرقة الموسيقية تعزف ألحانها وحبابة محتضنة عودها حتى ينتهي العزف)

الجميع (في تهليل) — بديع ! بديع . . .

أحد الجالسين لآخر — لقد أضفى قدوم ابن أبي ربيعة على الخلد فتنة وأي فتنة !

ثان — لقد كان احتفالهنّ بقدومه الاسبوع الماضي رائعاً

ثالث — سيكون احتفالنا به اليوم أروع !

آخر — لقد بدأت حبابة !

(حبابة تبدأ تغني من شعر ابن أبي ربيعة :)

كِدتُ يوم الرحيل أقضي حياتي ليتني مِتّ قبل يوم الرحيلِ
ما أطيق الكلام من شدة الوجد ودمعي يسيل كل مسيل . . .

* * *

(الجماعة يبدون اعجابهم الشديد)

أحدهم — إيه يا حبابة . . أسعدينا . .

ثان (وقد مدّ ذراعيه موجهاً اليها الخطاب) — بالله يا ساقيَ الارواح (حبابة تلتفت اليه) روّي ظماءك ! .

حبابة (تبتسم وتجيب بانحناءة خفيفة برأسها) — . . .

(وبعد لحظة تعود الفرقة للعزف فتغير حبابة اللحن وتغني من شعر ابن أبي ربيعة)

كتبتُ اليكِ من بلدي كتاب مُوَلَّهٍ كمِدِ
كئيبٍ واكفِ العينين بالحسرات منفرد
يؤرّقه لهيب الشوق بين السَّحر والكبد
فيمسك قلبه بيد ويمسح دمعه بيد

(ثم يسدل ستار مسرح البهو بينما الجماعة يبدون الاعجاب الشديد)

أحدهم (بعد لحظة) — هذا والله الذي فعل بقلوب الغيد الأفاعيل !

آخر (باسماً موجهاً الخطاب لعمر) — هذه بعض رقى سحرك يا ابن أبي ربيعة

ثان (ضاحكاً) — بل بعض نفثات سمك أيها الصّل !

ثالث (ضاحكاً) — صلّ الغواني . ها . ها . ها (الجميع يضحكون)

أحدهم (رافعاً كأسه) — املأ أيها الساقي

الساقي (أحد الولدان المخلدين وقد أسرع) — لبيك مولاي (ثم تسمع قرقرة صبّ الخمر في الكؤوس)

آخر (رافعاً كأسه) — لنشرب هذه على قول ابن هاني :

واشرب على الورد من حمراء كالوردِ !

(الجميع في مرح ها ها ها ثم يشربون)

ثان (وقد أفرغ كأسه) — هلمّ يا ساقي (يسرع اليه أحد الولدان المخلدين)

الساقي — لبيك مولاي ! (ثم تسمع قرقرة صب الخمر في الكؤوس ثم تلامس الكئوس)

الثاني — (وقد رفع الكأس الى فمه) وهذه على قوله :

لو مسّها حجرٌ مسته سراءُ (الجميع يضحكون ويشربون)

أحدهم لعمر — والله لست أدري أيهما ألذّ . أخمرتك وابن هاني أم خمرة الساقي ؟! ..

ثالث — (وقد مدّ يده بالكأس للساقي) أما أنا

فاسقني حتى تراني أحسب الديك حمارا (الجميع يضحكون ها ها ها)

آخر: لنفسه (وقد أثقلت الخمر لسانه وبدأت تلعب برأسه) — الخمر .. الخمر .. يخيل لي أن لصًّا كان قد سرقها من الجنة وفرّ بها الى الأرض !

أحدهم (هاتفاً) — يا له من لص !

آخر — فلنشرب نخب ذلك اللص (الجميع يضحكون ثم يشربون)

أحدهم (مخاطباً عمر) — ما عهدتك يا ابن الخطاب في الدنيا من عشاقها .

آخر — دهشاً — لم يكن من عشاقها ؟ ان لكلامه رنين ضحكها في الكأس .

ثانٍ — بل له رَوْح رحيقها هبّ على الشاربين !

آخر — بل ما أخاله إلاَّ رحيق الحُسن عُتِّق في دنان الشعر !

عمر — بهدوء — أنا خمري. كانت لم تمسسها يد قاطف ولا عاصر !

أحدهم — (متسائلا) عجباً ؟ وأي خمر تلك يا ابن أبي ربيعة ؟

عمر — سحر العيون في كاسات المُقَل وخطرات القدود على جمر الفؤاد !

المتسائل (وكأنما قد تذكر) — آه .. تلك خمر (ثم صائحاً بحرقة) جهنمية !

الثالث (في تلعثم السكر وقد مدَّ عنقه بشدة نحو عمر) — ومن أين سرقتها ؟ !

المتسائل (صائحاً) — من الجحيم ! (الجميع يضحكون)

(وهنا تسمع ضجة وجلبة خارج المجلس بين جمع من النساء)

عمر — ما هذه الضجة ؟ !

أحدهم: لعُمر (وقد أطلّ من شرفة البهو). الحور يُردنَ لقاءك وصاحباتك الانسيات يمنعهنّ

عمر (ضاحكاً) — دائماً النساء هنّ النساء !

آخر (في دهشة) وقد أطلّ من الشرفة — ما أبهج ما أرى ؟ لكأن الخميلة رُصّعت بأزهى لآلىء الخلد !

(أكثر من في المجلس يتجه الى الشرفة فتبدو على وجوههم آيات الدهشة والاعجاب ويهتفون)

— تبارك المبدع المصوِّر ! !

أحد الجالسين لعمر — أنتَ الذي أوقعتَ بينهنّ إذ فضّلت صاحباتك على الحور . وإني والله لدهِشٌ من تصرفك !

عمر — شكراً لله أن منَّ على الكثير من صاحباتي بنعمة الخلد . فهنّ عندي أغلى وأعز !

آخر متعجباً — من الحور ؟

عمر — أنا أقر بأن الحق أجمل . ولكن صاحباتي تكسوهنَّ الذكريات مفاتن عجيبة !

ثانٍ — تستطيع أن تصحب من الحور من تشاء فتكون لك معهنّ ذكريات .

عمر — تظل صاحباتي أعز . فهنّ أقدم صحبة . وقد تقسّم حبهنّ الفؤادَ فلم يبق فيه موضع لقدم .

أحدهم ضاحكاً — قدم ! ها ها ها ... وهل تدخل الجميلات فؤادك بالأقدام ؟ !

عمر — إن أشهى المناظر الى قلبي رؤية قدمَـيْ الجميلة عاريتين !

(وهنا تشتد الضجة والمشاحنة بين الحور والانسيات في الحديقة حيث تسمع مجادلة بينهن)

إنسية (صائحة) — لا لن نسمح لـكنّ بالدخول .

إنسية (تهمس لأخرى بدهشة) — انظري يا اسماء تلك الحورية الميَّـاسة القدّ لو رآها لافتتن بها .

اسماء — بلاشك. فاني أعرف له قلباً كالشراع توجهه ريح الحسن كيف تشاء (ثم صائحة) لا . لن تدخلن أبداً .

الرباب لهند (بلهفة)— انظري: انظري يا هند تلك الحورية التي تتلألأ في ثوبها السندسي !

هند (تشهق في دهشة)— لـكأن بريق الماس قبسٌ من أضواء جسدها ! (ثم لصاحبتها) وتلك السمراء المشتعلة . انظري .... لـكأن بسمتها اشراقة كوكب يتنوَّر !

الرباب — بل تأملي تلك التي كأنما كل أضواء القمر أُريقت على محياها (ثم صـائحة) لا لن نسمح بالدخول أبداً

(وهنا يشتد ضغط الحور ويوشكن على الدخول)

الثريا لزينب (في اضطراب) — تُـرى سيُـفتتن بهنَّ أم يفي لنا كما وعد؟ !

زينب — يا لك من غبية ! وهل نسيتِ كيف كانت في الدنيا مواعيده ؟

(وهنا الحور يتدافعن الى الداخل وقد تغلبن على الانسيات ثم يندفعن الى داخل البهو متجهات الى حيث يجلس ابن أبي ربيعة بين أصحابه)

الحورية السمراء الفاتنة -- (تخاطبه) — ما هذا الإعراض ؟ منذ أن منَّ الله عليك بنعمة الخلد وأنت متباعدٌ عنا مشغول بإنْـسياتك !

حورية باسمة (بدلال) — نحن نحن الحور . . !

حورية — أنظر كيف أبدع الله تصويري ؟

الحورية المياسة — القد (بتأوُّد) — وأنا تأمَّـل تـكويني !

الحورية — التي في بريق الماس (تتقدم بدلال وهي تبتسم حتى تصير في مواجهته ثم تعرض جمالها في أوضاع فاتنة بأثوابها السندسية وتقول) — تبارك الذي خلق !

جميع من في المجلس (يهتفون) — تبارك المبدع المصوِّر !

في أقصى (البهو) (أحدهم لجاره بشبه حسد) — كأن لم يَعُد في الخلد غير ابن ابي ربيعة !

الجار — انه الحِصْن المستعصي عليهنَّ !

جار آخر — تُرى الى متى سيقاوِم !؟

آخر — وهل يُقاوَم سحر الحور ؟!

حورية (بحنق) — انه يصر على العناد . فما زاد على أن ابتسم !

الحورية السمراء — هذا تحدٍّ لارادة الله !

أخرى (بحدة) — أيبدعُنا الله لهم ليُعرضوا عنا ؟

حورية لأخرى — وماذا نفعل في الخلد اذا اقتدى به الآخرون ؟

السمراء المليحة (بشبه همس) — ان لم تفتِنْه فقد ضعْنا .

عمر — (باسماً : وقد سمعها) — والله كان بودّي بإحسان الخلد . ولكني لا أستطيع وهؤلياء حولي (مشيراً الى الانسيات اللائي التففنَ حوله)

حورية — كنتَ في الدنيا حاذقاً في التخلص . وكم لك في الكذب معهنَّ من سوابق .

عمر (باسماً) — ولكنا هنا لا نقول إلاَّ الصدق !

السمراء المليحة — إكذب ولو مرة !

عمر — أعوذ بالله ! وهل نسيتُ عذاب جهنم وشياط النار في جسدي ؟

إنسية (تتقدم الى الحور) — أما كفى ؟ انه لا يريدكنّ !

الحورية المياسة القد (وقد لاحظت عمر يتأملها بشغف شديد) — بالعكس بل هو يريد. انظري ... لكأن شعاع روحه المنبعث من عينيه ذراعان يريدان احتضاني !

الانسية — وماذا يمنعه أن يفعل ؟ وهو هنا من الخالدين يفعل ما يشاء !

الحورية — لعله يخشاكنَّ . أو ربما سحرتنَّ له . فأنتم بنو الانس والشياطين أبناء عم !

الانسية — وهل كان يخشانا في الدنيا حتى يخشانا هنا ؟ وهل رعى لنا هناك ذمة حتى يرعاها هنا ؟

الحورية المياسة لعمر (بغيظ) — أنا والله دَهِشةٌ من أمرك . فاني أحس بأنك تريدني .. تريدني . وقد كنت في الدنيا تفعل ما تريد أما هنا فلا تريد أن تفعل !

عمر — كان ذلك هناك ممنوعاً أما هنا فمباح !

الحورية (بغضب) — خواطر سارق ! معتدٍ ورب العزة !

عمر (باسماً) — كلاّ يا شاهرة سيف جمالك ! بل قولي صائد . . . قانص . . . فاتك . . . كانت لنا هناك في ذلك لذة . أما هنا . فسلام ! ..

(موسيقى وستار)

الفصل (١) المنظر (٣)

(تحت احدى خمائل الجنة حيث تجلس في صمت بعض الانسيات بينهن الثريا ومعها زينب ويرى بعض الوصيفات وتسمع موسيقى هادئة حزينة)

إنسية لأخرى (بانكسار) ـ لقد غرر بنا حتى تِهنا كِبراً على الحور

الثانية (بحزن) ـ ما أعظم شماتتهم بنا اليوم !

الثريا ـ تتنهد بحزن عميق . . . .

زينب — أما قلت لك إن الرجال لا عهد لهم ! ؟

الثريا (بمرارة وألم) ـ من كان يراه وهو يحلف ويؤكد ؟ ! . (ثم مستطردة) ألا ما أكذب الرجال ! !

زينب ـ ربما كان صادقاً وقت أن حَلَفْ !

الثريا (بدهشة) — صادقاً ؟ ! . . إنك تتهمين الصدق يا زينب ... !

زينب ـ يا ثريا ... ان للقلوب أسراراً تحيّر العقول . وكأنما تسيّرها قوة خفية يلذ لها أن تسخر منا ومن مواثيقنا المؤكّدة وعهودنا المبرمة ! !

الثريا (تتنهد) ـ هذا مريع . . لقد رأيتُه بعيني ليلة أمس يدخل القصر مع تلك الحورية .

زينب ـ ولِـمَ كل هذا الألم ؟.. أنتِ نفسك عنـد ما كنتِ مجنونة بحبه في الدنيا ثم أُرغمتِ علي الزواج من سعيد بن الحكم . ماذا حَـدَثْ ؟ لقد نَـفَـرْتِ . وتأبَّـيْـتِ وعاندْتِ ، ثم أخيراً . . . رَضَـخْـتِ وأذعنت وضمك وسعيد سقف واحد . . .

الثريا (بجزع) ـ أوه . . . ما أفظع ما تقولين . . . إن جسدي ليقشعر لتصوُّر ما حَـدَثْ . ولـكني مفضية إليك بأخطر أسراري . . . كنتُ حتى في تلك اللحظات المشئومة أُغمض عينيّ لأرى أمامي عمر ابن أبي ربيعة لا سعيد بن الحكم ! !

زينب (في دهشة) ـ يا للجنون ؟!

الثريا (باكية) ـ بل ما بَـرح قط رسمه فكري أو ذِكْرُه قلبي .

زينب (بتهكم) ـ ولعله أيضاً ليلة أمس ما برح قط رسمُـك فكره أو ذكرك قلبه ! !

الثريا ـ (بحدَّة) أتسخرين ؟!

(وهنا تسمع ضجة مقبلة وصخب وأصوات)

إنسية ـ (صائحة) هيا بنا اليه ! !

أخرى ـ لا بد أن ننتقم !

أخرى ـ لقد غدر بنا . .

أخرى ـ بل أذلَّـنا أمام الحور !

الجميع ـ الغادر . اللئيم . . . هيا اليه . . .

الفصل (١) المنظر (٤)

(غرفة فاخرة في قصر ابن أبي ربيعة بالجنة حيث يرى جالساً هو وصديقه بكر)

بكر ـ والله أنك لسعيد الطالع يا أبا الخطاب فإن الحورية التي قضَّيت معها ليلة أمس فتنة الخلد !

عمر . . . يتنهد ـ (إيه . .)

بكر ـ كانت ليلة غناء أليس كذلك ؟!

عمر (بألم) ـ كنتُ والله أظن قربهـا يشفيني واذا به يثير كوامن شجوني وما جنيتُ منه غير الحسرة (ثم متنهداً) هيه !! ما ألذ الانسيات ! !

بكر (متعجباً) ـ لا أحد في الخلد يشاركك فيما تقول ! !

عمر ـ تصوَّر يا بكر قرباً بلا وَجَلٍ ولا خوفٍ ولا خَطَرْ . لا عذول نتجنَّبه أو رقيب نرهبه . . . أيّ طعمٍ له وأية حرارة ؟ ثم (باسماً) لكأنها والله ياصديقي كانت ليلة في فراش الزوجية لا مغامرة من مغامرات الحب !

بكر ـ أستغفر الله ! يخيل إليّ يا أبا الخطاب انك لم تَطْهر من دنَس الدنيا بعد، وان فيك لبقيَّةً من نوازع أهل الأرض !

عمر : (متنهداً) ـ إيهٍ يا ثريا !

(وهنا يصل جمع الانسيات الصاخبات أمام القصر حيث يسمع
صخب وهتافات . الغادر . اللئيم ... الكاذب ...)

بكر (دهشاً) ـ ما هذا الصخب ؟ ثم ينصرف مسرعاً ليستطلع الأمر .

(خارج القصر في أقصى جانب المسرح يشاهد اثنان من الملائكة يمران فيسمعان لغط الانسيات)

الملاك الاول (لزميله) ـ ماذا أسمع ! ؟ ! ألغوٌ في جنة الخلد ؟ !

الملاك الثاني (بعد أن استمع قليلاً)ـ آه ... ها . ها . ها . ما هذا لغواً . ولكنها شرعة الحب . خصام ووصال . عتاب ورضىً . أحوال كموج البحر . مدٌّ وجزر وهجرٌ وصدٌّ !

إنسية (تصيح في الجمع)ـ هيا اقتحموا عليه القصر .

إنسية أخرى ـ لا بدَّ أن ننتقم !

إنسية أخرى ـ لا بدّ أن نثأر

إنسية ـ هيا بنا جميعاً

الجميع ـ هيّا ... هيّا .. (ثم يندفعنَ نحو باب القصر)

زينب (تصيح في الجمع بصوت آمر) ـ قفوا .. دعوا الثريا وحدها تدخل !

الجميع ـ نعم . نعم . ادخلي يا ثريا

إنسية ـ تشجعي !

أخرى ـ كوني جريئة

ثالثة ـ تذكري انه غدر بك

أخرى ـ بل بنا جميعاً

(الثريا تتقدم واجمة وتدخل الى عمر وتذهب حيث يجلس ابن أبي ربيعة)

الثريا (بثبات) ـ طاب صباحك يا أبا الخطاب !

عمر (متهللاً) ـ أهلاً أهلاً . صباح السعادة يا ثريا . ما هذه الضجة ؟ تفضلي (مشيراً بالجلوس فتجلس على أريكة مقابلة)

الثريا (ساخرة) ـ يا له من لقاء ساحر !

عمر ـ بلا شك . فأنتِ ساحرتي

الثريا ـ (بتهكم) ومن كلامٍ معسول ؟ !

عمر ـ (مندهشاً) أتهكم ؟ أم ماذا ؟

الثريا ـ كما تشاء !

عمر ـ أنت غضبى فما السبب ؟

الثريا ـ كانت ليلة شائقة ؟ أليس كذلك ؟

عمر ـ أية ليلة ؟

الثريا ـ أنسيتَ ما فعلتَ ليلة أمس ؟ لقد رأيتك بعيني رأسي » (وهنا يزداد صخب الانسيات)

عمر ـ « غاضباً » إذن أنتِ التي ألَّبتهنَّ عليَّ وسقتهنّ لتهديدي . كأنك تريدين التحكم في حريتي ؟ ألا فاسمعي ؟ . إني ما أبحتُ هذا لأحد قط ولن أبيحه أبداً ... !

الثريا ـ (بتهكم) أذكرُ أنك صرحتَ لي مراراً في الدنيا بأنك سعيد بتحكمي هذا الذي تنكره الآن . وكم وضعتَ حريتك هذه التي تغار عليها من النسيم بين يديّ أكثر من مرة !

عمر ـ ثائراً ـ « وقد هبّ واقفاً » كان ذلك حينما كنتِ وفية . تؤكدين لي من العهود والمواثيق ما جعلني أعرّض نفسي للتلف من أجلك . . لكن ألم تخفري تلك

العهود ؟ وتخونني تلك المواثيق ؟ ألم تتزوجي من سعيد ؟ ألم تُنْجبي منه ؟ . . . انك أنت التي حللتِ بيديكِ حبال سحرك عن قلبي . . .

الثريا - وقد أُخذت واضطربت من المفاجأة -

عمر - بحدة - تكلمي ! من الذي خان وخفَر ذمة خدينه ؟

الثريا - مطرقة (وقد أخفت وجهها بين كفيها) بربك لا تذكر لفظ الخيانة .

«ثم ترتمي على الاريكة باكية »

عمر - متهكماً - يا للاحساس الرقيق ! . . .

الثريا - (وهي تبكي) - لم أَخُنْك في حياتي لحظة

عمر - (بتهكم) - وهو يضحك ضحكة هستيرية - وعهودك ؟ ومواثيقك ؟ انني لك، لك وحدك ولن أكون لغيرك ولو ذبحوني « ثم مغيراً لهجته ؟ » يا للسخرية ! ها أنا بعد طول تجاربي تخدعني المرأة الوحيدة التي وهبتها قلبي !

الثريا (وهي مستمرة في البكاء) - ان ما فعلتُه من أجلك لا يمكن تصوّره . بل فوق طاقة البشر .

عمر (محتدًّا) - وماذا كنتِ تتصوّرين ؟ هل ظننتِ الحب ملهاةً أم تسلية ؟ ما أغباني حين وثقتُ بك لقد نسيتُ انك امرأة ! !

الثريا (تخنقها العبرات) - أنت تظلمني إذ تحملني وحدي تبعة كل ما حدث . كان يجب عليك أن تأتي لتنقذني . . .

عمر (متهكماً) - ولما لم آتِ استسلمتِ ! ! (ثم مغيراً لهجته) في نفس اليوم الذي أعددتُ فيه كل شيء واتَّخذتُ طريقي إليك على جناح من اللهفة .

(ثم صائحاً) يا للطعنة الغادرة !

الثريا (بحسرة وهي تبكي) - لماذا تأخَّرتْ ؟ لماذا تأخرت ... لقد كانوا أقوى منّي ...

عمر (محتدًّا) - أكنتِ تريدينني أن أقتل أباك أم أخوتك ؟ ! لو أعلم أن هذا يجعلك لي لخُضت اليك بحاراً من الدم ! بل لو أعلم انك تكونين لغيري لقطَّعتُك بسيفي ولمزّقتُ جسدك تمزيقاً . . .

الثريا – ليتك قد فعلتْ ... فكم تمنّيتُ في تلك المحنة النكراء ان أموت بين يديك !

عمر (ضاغطاً على أسنانه وكأنما يناجي نفسه) – آه لو تعلمين كم حطمتُ بسببك من بنات حواءَ انتقاماً لخيانتك ؟

الثريا (بلهفة وقد رفعت رأسها) – إذن كنت تفعل كل ذلك انتقاماً مني ؟!

عمر (مستدركاً) – أوه ... لا . لا . لم يبلغ اهتمامي بك يوماً كل هذا المبلغ . بل ان أي امرأة مهما حَقُر شأنها لهي خير منك لأنها على الأقل لم تتدنس في نظري بالخيانة !

الثريا (بمرارة) – ما زلت تقول الخيانة ! ؟

(هنا يسمع صوت بكر وقد أقبل من عند الانسيات الصاخبات ثم يدخل وهو يلهث ويقول)

بكر – يا له من يوم ! كدنَ والله أن يمزقنني ..

(وفجأة يرى الثريا منطرحة تبكي فيقف مندهشاً يردد الطرف بينها وبين عمر الواقف على مسافة منها)

عمر محنقاً (كأنما لم يحس بدخول بكر) – كلما تذكرتُ أنك كنت وسعيد .. أوه .. قفَّ شعر رأسي (يضع يده على رأسه) وأحسّ كأنني انقلبتُ مارداً جباراً لسحقك !! (ثم صائحاً) هيا يا بكر .. هيا نخرج من هذا المكان فاني أحس كأن دماء ألف شيطان تغلي في عروقي وكأن نفسي تحدثني بارتكاب جريمة . أوه . اللهمَّ غفرانك . (وقد تذكر انه في الخلد ثم يندفع نحو الباب)

الثريا – (باستعطاف وهي تشرق بدموعها) كلمة واحدة . سأخبرك بكل شيء . إنهم ..

(وقبل ان تتم جملتها يكون عمر قد خرج وصفق الباب خلفه بشدة فتعود الثريا للبكاء)

بكر (هازاً رأسه أسفاً) – ما أقتل الكبرياء ... انها تصرع حتى الحب ! (ثم يخرج)

(وهنا يدخل جمع الانسيات عليها فيجدنها منخرطة في البكاء فيدهشن ثم تسمع منهن صيحات مكتومة الغادر . اللئيم . القاسي ...

(ستار وموسيقى تعبر عن أشجان الحب)

القاهرة

محمد فهمي

ديوان التفتيش

The Inquisition; — L'Inqnisition (fr.)

(L. Inquisitio (n = a seeking or searching for ; a seeking for ground of accusation)

في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية : محكمة كنسية ، كانت تدعى في الرسميات باسم « المكتب المقدس » (Holy office) عهد اليها في مقاومة الكفر والمروق، بأن تفتش باحثة عن الكفار ومن اليهم وتعاقبهم ، وكان لها أن تتسقط أخبارهم بطرق أخرى غير التفتيش ، كتلقي التقارير والتحقيق فيها .

وكان القصاص من الكفار بالموت وغيره من العقوبات قد بدأ منذ القرن الرابع الميلادي ، ولكن التفتيش بالمعنى السابق لم يبدأ إلا في القرن الثاني عشر . ثم زاده البابا انوسان الثالث قوة في القرن الثالث عشر . ومن ثم انتشر في فرنسا وأسبانيا وايطاليا وألمانيا وغيرها من الممالك . وكان المفتشون هم الاساقفة ، ولهم سلطة التفتيش في حدود أبرشياتهم (Dioceses) ومعهم فريق من المساعدين . ولما نظمت هذه المحاكم عهد بها الى الدمنكيين، باشراف هيئة عليا في رومية كانت تدعى «مجمع المكتب المقدس» (Congregation of the Holy Office) . ثم أجيز نظام التفتيش في إسبانيا، ووضع تحت رقابة الدولة في أواخر القرن الخامس عشر. وقد اشتهر بغلظته وقسوته وكثرة من قتل من الناس . وكان أكثرهم يحرقون أحياء أو تنفذ فيهم أنواع أخرى من العقاب بحسب منطوق الحكم الذي تتولى تنفيذه السلطات المدنية . وكانت أعمال هذه المحاكم تسير في الخفاء ، فلا يطلع عليها إلا أشخاص رسميون يدعون « الامناء » (Familiars) وبلغت سلطة هذه المحاكم أشدها في القرن السادس عشر فانتقلت أنظمتها الى المستعمرات البرتغالية والاسبانية . ثم قل نفوذها في القرن الثامن عشر . . ثم ألغيت من فرنسا سنة ١٧٧٢ . ومن البرتغال في حكم يوحنا السادس (المتوفي في سنة ١٨٢٦) ومن أسبانيا سنة ١٨٣٤ . أما (مجمع المكتب المقدس) فلا يزال على النظام البابوي ، ولكن عمله الآن مقصور على النظر في تحريم قراءة المؤلفات التي يرى فيها خروج على الدين .

من معجزات العلوم والفنون

أحدث المستكشفات

التي أسفرت عنها الحرب الماضية

منافع الصمامات الكهربية في المخترعات : إن تذليل الطاقة الدقيقة جدًّا التي في الكهيرب ، لنفع الناس ، ذلك التذليل الذي بلغ أعظم شأو في الحرب الخالية ، قد وسَّع نطاق العلوم والمعارف ، وقوَّى الحواس البشرية تقوية لم يحلم بها أي امرىء كان في زمن من أزمان التاريخ .

وكان من أثره أن غدونا نبصر ما لم تكن أبصارنا تستطيع رؤيته في الحقب الغابرة ونسمع ما لم يسمعه الورى من قبل ، بل نضطلع بمهام لم يضطلع بها الخلق في أي زمن سابق (مثل صمام الراديو الذي عندك في بيتك)

ولا غرو فانك بجهاز صغير ، من الزجاج والسلك الكهربي ، تتمكن من استطلاع خفايا الفولاذ الذي تبلغ ثخانته عدة عقد « بوصات » وبجهاز آخر تتكشف لك الغازات السامة التي لا يتاح لك شمها . وبغيره تسمع الحسيس (١) حتى صوت نمو أوراق الحشيش .

وبالصمامات الكهربية يشوى اللحم شيًّا جيداً ، وتقتل الجراثيم وتفتح الأبواب المغلقة كما يستدل على مكان شبوب النيران في أي وقت كان . وبها كذلك يشعر المرء بسطو اللصوص ليلاً . ويستطيع أيضاً قيادة الطائرات بسلام وتنقية الهواء من جراثيم الحمى الصفراء .

وبالصمامات الكهيربية تدوَّن للانسان المحادثات التليفونية في أثناء غيابه عن مسكنه ريثما يعود اليه في أية ساعة فيتلوها عليه ذلك الجهاز ، بصوت جهوري . وبها أيضاً تتحوَّل العلامات الرقيقة المرسومة على شريط السينما أصواتاً وصوراً جلية ، تظهر على ستائر الصور المتحركة ، ممثلة للممثلين والممثلات الذين يعملون في أقاصي البلدان . فالأغنية التي تغنى في مدينة

---

(١) الحسيس — الصوت الخفي — ومنه قوله تعالى ، لا يسمعون حسيسها .

نيويورك مثلاً تسمع في مدينة كليفورنيا ، وذلك في جزء من خمسين من الثانية . وكذلك تنقل بالراديو الصور الفوتوغرافية من ساحات القتال النائية الى مدينة واشنطون مثلاً في سبع دقائق .

وأصبح في مقدور الانسان أن يكبّر صورة أدق الأشياء ، كالقصبة الهوائية ليرقة البعوضة مثلاً ، الى مائة ألف مرة . وفي وسعه أيضاً تصوير جرثومة الانفلونزا التي لا تستطاع رؤيتها . وكذلك استقصاء البلورات والميكروبات التي لا يزيد ثقلها على أجزاء قليلة من الكترليون (واحد عن يمينه ٢٤ صفراً) من الأوقية .

منافعها في المصانع : ومن ثمة يتاح لنا القول إن العلم قد بلغ أوج أسرار الطبيعة. بيد أن أعظم مستقبل يتوقعه المطلعون ، للصمامات الكهيربية ، قد بدت بوادره من قبل ، ليس في المخترعات التي ستستعملها أنت وأنا كالراديو المصوَّر مثلاً « تليفزيون » بل في الصناعة أي انتاج المنتجات الأنيقة التي تلزمك ، وذلك بأسعار أرخص من المألوف . وقد قدّر الخبراء المصنوعات التي أنتجت في ميدان الصمامات الكهربية في السنوات الثلاث الماضية ، بخمس مائة مليون ريال وذلك عدا جهازي الراديو والرائد اللاسلكي « الرادر »

وما من شك أن الصمامات الكهيربية قد أحدثت تغيرات انقلابية في الصناعة وذلك بازالة العناء الذي كان يتجشمه الصناع ، آناء الليل وأطراف النهار ، ونقصد بها الصناعات الصغيرة التكرارية التي تقتضي شغل حاسة من الحواس البشرية الخمس ، تباعاً ، دون شغل الذهن . فترى الصمامات الكهيربية تقوم بمهام العدّ والاحصاء والتفتيش والفحص وادارة الصمامات « البلفات » ادارة سريعة محكمة لم تتح لأي انسان في أي زمن كان . فالألواح الفولاذية مثلاً التي تدخل في صنع علب الصفيح ، تدورها آلات لفافة بمعدل ألف قدم في الدقيقة. وهذا عمل سريع جداً لا تقوى عليه العين البشرية إذ يتطلب مع تلك السرعة ، تفقد أي ثقب صغير جداً كثقب الدبوس في أي موضع من اللوح لنبذ العلبة التي يقع فيها ذلك الخرق ، مخافة صيرورته مصدراً لنضح السائل الذي يعبأ فيها ، أو سبباً لتسمم الطعام الذي تحويه العلبة فيما بعد ، تسمماً يفضي بآكله الى المستشفى ، إذ تقوم العيون الكهيربية بتلك الرقابة فتظهر تلك الثقوب الدقيقة وترشد اليها المراقبين ، ولو كان قطر كل ثقب منها لا يزيد على جزء من مائة من العقدة « البوصة » وذلك عند مرور اللوح تجاهها .

تاريخ اختراعها : ومع ذلك فان هذا المخترع (بفتح الراء) لم يظهر إلاّ في سنة ١٩٠٧ إذ قام العالم ده فورست باختراع الصمام الكهيربي الثلاثي العناصر المفرّغ من الهواء . ثم تطرّق منه الى اختراع الصمامات الكهيربية المتقنة . وبعد سنة ١٩٢٠ حينما ظهرت الاذاعة

اللاسلكية ، اكتسب هذا الاختراع قوة دافعة عظيمة فتولدت من الصمامات الكهيربية أخواتها الكبيرة ، منافع جزيلة للعالم، إذ نشأت عنها فنون وصناعات شتى . فكانت باكورة لما تلاها من جم المخترعات المفيدة .

مبلغ تقدمها : وفي هذا الصدد يقول أحد مديري شركة من كبريات شركات الراديو الامريكية : — إننا أوتينا في السنين الماضية القليلة تقدماً أعظم منه في السنوات العشر التي سبقتها . ومع ذلك يقول غيره « إنك لو عرضت أمام النظر شريطاً طوله ميل ، من الشرط المستعملة لقياس الأبعاد ، معتبراً إياه مقياساً لما يحتمل أن تقدّر به مبلغ منافع الصمامات الكهيربية لتبين لك أننا لم نكتشف من ذلك الميدان جميعه ، اكتشافاً تامًّا ، إلاّ مقدار مساحة قطعة نقود من ذات ربع الريال من ذلك المقياس »

وصف الصمام الكهيربي : وقد يخطىء الناس في فهم ماهية الصمامات الكهيربية. والواقع أن مدارها على الدقيقة الكهربية البحتة الخفية أي الكهيرب « ألكترون » وهو أساس كل مادة في الوجود .

وسائل السيطرة على الكهيرب : وما فتىء التحكم في الكهيرب هو العبء الذي تضطلع به الصناعة الكهربية وذلك منذ البداءة . ولكن حدث عند ظهور الاذاعة اللاسلكية أن أضحت كلمة « كهيربات » مقصورة في الغالب على الأجهزة التي تؤدي عملها في الأثير ، لا في باطن المعدن الصلب ، مثل سلك النحاس الأحمر لأن الصناعة الكهربية ، بغض النظر عن كل ما قيل ، مدارها الكهيربات . وأول عمل تعمله الصمامات الكهيربية هو استخراج الكهيربات من المعدن ، وذلك بوسائل شتى ، ومنها التيار الكهربي القوي الضغط ، أو بوساطة تهييجها بشعاعة ضوء . ولكن أسهل الطرق ، صهرها بالحرارة . وهذا سبب احتواء أغلب الصمامات الكهيربية على الفتائل المعدنية الدقيقة الساخنة . شأنها في ذلك شأن المصابيح الكهربية الدُّرّية (incandescent) وهذه هي الكلمة الصحيحة كما أثبت كاتب هذه السطور ، في بحث قدمه الى مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة .

كيف يدور المذياع : وحينما تستطيع اطلاق الكهيربات من الفتيلة المعدنية ، يتيسر لك استخدامها فيما تروم . فاذا سلطت شحنة كهربية موجبة على لوحة معدنية قريبة منك ، تمكنت من جذب الكهيربات الى تلك اللوحة ، وبما إن مجرى الكهيربات سواء كان في السلك أو في الأثير هو تيار كهربي ، كانت هذه وسيلة لتوليد التيار الكهربي والتحكم فيه.

ويتمُّ هذا التحكم عادة بشبكة معدنية تحول بين الفتيلة المعدنية واللوحة ، فتقوم الشبكة مقام الشيش أو الشعرية في النافذة . وبتغيير ضغط التيار الذي يصوَّب الى تلك الشبكة يمكنك

استخلاص كهيربات كثيرة أو قليلة كما تشاء . وباحداث تغيير طفيف جدًّا في ضغط التيار الكهربي المسلّط على تلك الشبكة المعدنية ، يتولد تغير كبير في تيار الكهيربات . وهذه هي الطريقة التي يعمل بها صمام تقوية الصوت في المذياع « الراديو » الذي في دارك .

وصف العين الكهربية أي البصاصة الكهربية أو البطارية الحساسة بالضوء في السينما : وليس للبصاصة الكهربية ، فتيلة ساخنة وانما هي تقتنص الكهيربات من المعدن الذي يغشّى به باطنها . وذلك بتسليط الضوء عليه . وكلما اشتد الضوء المصوَّب نحوه ، كثرت الكهيربات المقتنصة من باطنها ، حيث تتحوَّل تغيرات الضوء تغيرات كهربية . وعلى هذا النمط تتحوَّل تقلبات النور والظلمة ، على طريق الصوت في فيلم السينما تقلبات في التيار الكهربي ، فتدير المذياع في الصور المتحركة .

وصف أشعة رنتجن : أما في صمامات أشعة رنتجن ، فتجذب الكهيربات الى اللوحة المعدنية « الهدف » بتيار كهربي شديد الضغط جدًّا قد يبلغ أحياناً بضعة ملايين من الفولطات . حيث تصدم تلك الكهيربات اللوحة المعدنية بقوة هائلة تكاد تصل الى درجة تشقيق المعدن وحينما تعود تلك الذرات المضطربة الى حالتها الطبيعية ، تنبثق منها الأشعة السينية (رنتجن) وهي أشعة شديدة التوغل في الجسم البشري ، قوية في اختراع الفولاذ الذي تبلغ ثخانته عدة عقد (بوصات)

أنواع الصمامات الكهربية ومزاياها : وليست الصمامات الكهيربية جميعها مفرغة من الهواء بل إن بعضها يحوي مقادير طفيفة من غازات خاصة . وحينما تصدم الكهيربات وهي سائرة في طريقها الى اللوحة المعدنية ، الذرات الغازية تفصل منها بعض كهيرباتها ، فيتقوّى بها التيار الساري فيها تقوية عظيمة. وذلك بوجود الأجزاء الباقية المشحونة بالكهربا الايجابية من ذرات الغاز . ومن ثمة تستطيع هاتيك الصمامات المسماة ثيراترون thyratron أو اجنيترون ignitron توجيه مقادير كبيرة من الطاقة التي يقتضيها صنع الاليومينيم . كما يتسنى استخدام الكهيربات في صناعة أشياء معينة .

وتستطيع المجالات المغنطيسية والكهربية توجيه موجات الكهيربات الى أي صوب ، كما يتيسر لك توجيه المياه بخرطوم ري الحدائق الى أية ناحية كانت .

وصف الراديو المصوّر — التلفزة : وفي صمام الراديو المصوّر مثلاً تتذبذب موجة الكهيربات طرداً وعكساً ألوف المرات في ثانية واحدة من الزمن حيث تصدم حجاباً زجاجيًّا مغشى بمادة متألقة فتولد الضوء حيثما تصدم ذلك الحجاب فترسم عليه مثالاً للصورة التي التقطتها آلة تصوير التلفزة .

وصف الرادار — أي الرائد اللاسلكي : وفي الواقع أن استخدام الصمامات الكهربية في تلك الحالات جميعها يتم طبقاً لقاعدة واحدة من هذه القواعد أو لأكثر من قاعدة . ففي الراديو مثلاً توجه الآن الموجات القصيرة جداً لاظهار المواقع النائية للطائرات المعادية كما يصوَّب اليها الضوء لكشفها وسوف تستعمل هذه الموجات في زمن السلم لأداء أعمال مدهشة في البيوت وفي الطرق العامة وفي البحار الهائجة وفي المصانع وذلك كتصريح أحد خبراء شركة وستنهوس الكهربية الصناعية الأمريكية

الراديو في العلاج والبيوت : ويسوغ استخدام الموجات اللاسلكية في علاج الأمراض البشرية وفي الطبخ دون توليد حرارة خارجية كما تستعمل في ارشاد البواخر إلى مرافئها التي يحجبها الضباب عن العيون وذلك بصفة أوتوماتيكية وهذا الى جانب الانتفاع بأجهزة الراديو الحربية الحالية المتقنة التي بلغت شأواً بعيداً من التحسين ونقصد بها (الرائد اللاسلكي — رادَرْ . إذ يصبح لها حينئذٍ شأن خطير في مشروعات السلم

الراديو لتحذير ساقة السيارات : ويجوز أن تركب في السيارات أجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة جداً التي تشبه الأجهزة الحربية . وحينما تصطدم الموجات اللاسلكية الموجهة التي تولدها هذه الأجهزة ، بصفوف من العاكسات المنصوبة في الجو أو على قارعة الطريق ، يتاح للسائق أن يتلقى التحذير الواجب الخاص بالنقط الخطرة التي ستصادفه أو يمكن أن يتلقى الارشاد اللازم للسير في الطريق ولو كان أكثف الضباب مخيماً عليه .

الراديو يقي القطرات والبواخر : ولم يعد سبب لاصطدام قطار بظهر آخر سائر على سكة حديدية واحدة . وكذلك لن تبقى صعوبة لأية باخرة في الاهتداء الى الطريق الأمين عند خروجها من مرفئها أو حين عودتها اليه ، عند انتشار الضباب وهطل المطر ، وقد حبتنا الموجات اللاسلكية الطويلة ، بالصوت عن بعد، وكذلك تمدُّنا الموجات اللاسلكية القصيرة جداً بالرؤية عن بعد .

كيف تسير الموجات اللاسلكية في الآفاق : والموجات الطويلة كالتي تستعمل في الاذاعة اللاسلكية النظامية تنطلق من موصل جوي لاسلكي مرسل مثل الموجات التي تتولد عند اسقاط حصاة في بركة ماء ، فتسير تلك الموجات في جميع الآفاق ، متبعة سطح الأرض كمرشد لها . حيث تسلك طريقاً منحنياً إنحناءً طفيفاً . ومن جهة أخرى تحصر الموجات اللاسلكية القصيرة جداً في مجرى ضيّق فتنطلق في الهواء متبعة طريقاً مستقيماً .

عوض جبرى

بحث لغوي علمي

علم الحيوان — Zoology

الاصطلاح من مقطعين يونانيين (Zoon) ومعناه كائن حي ، و (Logos) ومعناه محاورة أو بحث .

١ — أطلق اصطلاح « علم الحيوان » (Zoology) أولا للدلالة على فرع من علم الطب يختص بالبحث في الادوية والعقاقير التي تستخلص من الحيوانات .

٢ — العلم الذي يبحث عن كل ما يتعلق بالحيوان والانسان ، من الوجهة الحيوانية .

٣ — طرأ على مدلول هذا الاصطلاح تغير كبير بتقديم البحث العلمي ، ويرجع الى تطبيق القوانين الطبيعية التي كشفها علم الاحياء ، على علم الحيوان خاصة ، ولا سيما ما تعلق منه ببنية الحيوان ووظائف أعضائه ، فانقسم فروعاً منها :

(١) علم نشوء الانواع والاجناس ، ويسمى (Phylogeny)

(٢) علم نشوء الافراد ، ويسمى (Ontogeny) .

(٣) علم تاريخ التعضيات من حيث العلاقة بالاب والام ، ويعرف بعلم الاجنة (١) (Embryology).

(٤) علم تاريخ الحيوانات وتطورها خلال الاعصر الارضية ، ويسمى علم الاحاثة (٢) (Palæ obotany) بفرعيه : الاحاثة الحيوانية (٣) (Palaæozoology) والاحاثة النباتية (٤) (Palae obotany).

(٥) علم تاريخ الحيوانات من حيث استيطانها وعلاقتها المعاشية ، ويسمى علم الجغرافية الحيوانية (Zoogeography) .

(٦) علم تشريح الحيوانات الموازن (٥) ويسمى (Zootomy) أو (Zoophysics)

(٧) علم وظائف الاعضاء في الحيوان ، ويسمى : (Biodynamics) or (Zoodynamics)

(٨) علم كيميائية المواد والنسج الحيوانية ، ويسمى (Zoochemistry) .

(٩) علم الغرائز الحيوانية ، ويسمى (Zoopsychology) .

(١٠) بحوث علمية تتناول العلاقة بين الانسان والحيوانات التي تعيش الآن في الارض ومنها (Zootechnics) أو (Bionomics) أو (Thremmatology) . الى غير ذلك

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مصطلحات أقرها مجمع اللغة العربية (٥) يقصد بالموازن ما يعرف الآن بالمقارن .

آجنس

تأليف تشارلز ديكنز

انقضى العام وقاربنا عيد الميلاد ولا زلت مقيماً بمنزل الأسرة حيث سلخت زمناً قارب الشهرين أو جاوزهما ، كثيراً ما رأيت آجنس في غضونهما . وكان صوت قلبي يدوي بالنداء كالرعد في داخلي فأمتلىء شجاعة وجرأة ، وتجيش العواطف مشبوبة بصدري ويستثير ني ما أبذله من جهد في هذا السبيل . فقد كانت أنفه كلمات المديح تصم سمعي فلا أعود أسمع قولاً عداها . كان من عادتي أن أذهب الى حيث تقيم آجنس ممتطياً صهوة جوادي مرّة واحدة على الأقل كل أسبوع وأحياناً تتعدد الزيارات فأقضي المساء هناك . وكنت أقفل راجعاً في الليل غالباً — وكان الشقاء يلاحقني فأستشعره كطائر يحوم حولي ويحلق فوق رأسي وكنا ونحن نتصافح لنفترق أحس بغمرة من اللوعة والأسى ومع ذلك فقد كنت أرتاح لذلك لأنه كان خيراً لي من التيه في فيافي الماضي السحيق وأنا في يقظة تثقل كاهلي حيث أكون نهباً لأحلام بائسة موئسة. وقد سلخت عدداً عديداً من الليالي المسهدة التي أثقلتني وطأتها والتي كنت أتنزى ألماً تحت وقرها فقد قضيتها مشرّد اللب مبلبل الخاطر وكنت أجدد في تلك النزهات الليلية الأفكار التي كانت تشغلني عنها أسفاري الطويلة البعيدة .

لو قلت إني كنت أصغي لصدى تلك الأفكار التي تتردد في حنايا كبدي الحارة أكون قد أحسنت التعبير عن صادق خلجات نفسي . كانت هذه الأفكار تهمس في أذني كحفيف أوراق الشجر تحمله الريح من بعد وقد أقصيتها عني ورضيت لنفسي بعدها . وعندما نظرت إلى وجه آجنس ورأيت إمارات الاصغاء مرتسمة في حركاتها قرأت لها ما كتبته عنها فتحركت عواطفها وانبسطت أساريرها وحارت الابتسامات بين شفتيها وضلت الدموع في مآقيها وسمعت صوتها الحنون يرن رنيناً صادقاً منبعثاً من ماضي الحوادث الباهتة في دنيا الخيال التي عشت فيها زمناً وكنت أفكر في المصير الذي ينتظرني كما كنت أفكر فيه بعد أن تزوّجت من « دورا » وهل كان بوسعي أن تكون زوجي كما أريدها ؟ ! .

إن واجبي نحو آجنس التي أحبتني حبًّا لا يمكنني الغض من شأنه وإلاّ أكون قد ارتكبت خطأً فاحشاً يظهرني في ضعف وأثرة . ولكن يتناهى إلى مقدرتي أن أعود فأجدد

ما بلي منه فقد رممت نهايتي بيدي وغنمت ما تاقت إليه نفسي فأصبح لا حقَّ لي في أن أتذمر، وحقَّ عليَّ أن أحتمل وأصبر فوعيت ما أحسست وحفظت ما تعلمت ولكن حبها قد تملك قلبي وصار عزائي في محنتي الحاضرة وإني في غموض لأتبين أن يوماً موعوداً سيأتي وأفي ذلك الحب ديناً عليَّ من غير لوم ألقى أو عتب يُلقى . سيجيء هذا اليوم عندما يزول ما أنا فيه وعندما تلفظ شفتاي اسم « آجنس » وقد حلَّ ذلك اليوم بعد عودتي إلى منزل الأسرة وقد تقدم بي العمر وما زلت على عهدي بالحب الأول .

كانت آجنس كعهدي بها فلم يبد عليها تغيراً في خلقها فلا زالت محتفظة بجُماع صفاتها وخلالها . ولقد كان لي مع عمتي حديث في هذا الشأن منذ الليلة التي عدت فيها . لا أسميه كبحاً لعواطفي الجامحة أو تفادياً للخوض فيها فقد كان أقرب إلى التفاهم بينها وبيني فيما تحمل رأسي من أفكار وآراء لم تصغ كلمات بعد . فلما جنَّ الليل أخذنا مجلسنا حول المدفأة وكثيراً ما ضمنا هذا الجمع كما هي عادة الأسرة دون تكلف جنباً الى جنب كما كنا دائماً نلقي القول على عواهنه وإن كنا نحتجز لحظات صمت لم يُعكر صفوه . وإني لعلى يقين أنها قد قرأت أفكاري أو على الأقل جزءاً منها ووعت جيداً لماذا توخيت أن ألمس الموضوع لمساً رقيقاً دون تحديد .

أقبل عيد الميلاد ولم أعد موضع الثقة من « آجنس » وكان الشك فيما إذا كان يجول بخاطرها ما يجيش بصدري من أحاسيس جارحة تنهش شغاف قلبي وخشيت أن تفاتحني بما تعلم فآلم له ، فآثرت الصمت وبدأت أنوء تحت وقر ما ألقى من عنت ، فهذه حالنا وقد أذرت الرياح تضحيتي أدراجها فلم أف بعهد حبي فأجفلت كعهدي من قبل ولم أخط خطوة وإن قصر أمدها خزمت رأيي على أن اجلو موقفي وأزيح الحواجز من طريقي إذا قامت بيننا وأذلل الصعاب التي تحول دونها بيد حازمة صارمة .

لقد كان يوماً يا له من يوم خالد فسوف أذكره ولن أنساه أبداً ، كان يوماً بارداً أغبر من فصل الشتاء سقط فيه الجليد ساعات متوالية فغطى أديم الأرض بطبقة جامدة صلبة من البلور المتحجر وكانت الريح تهب على البحر، حيث تظل نافذتي ، عاصفة هوجاء صوب الجنوب وكنت أخالها تهب فتكتسح هذه الجبال الثلجية من طريقها في بلاد السويسرا فلا يثبت عليها قدم الانسان وأسائل نفسي أيهما أكثر وحشة هذه الأقاليم النائية أم المحيط المهجور الذي أتخبط في لجه .

قالت عمتي : أخارج أنت في نزهة اليوم على ظهر جوادك « يا تروت » ؟ وهي تشرئب برأسها داخل فتحة الباب .

نعم يا عمتاه إني راحل الى كنتربوري فانه يوم تطيب فيه النزهة. فأجابت عمتي « أرجو أن يكون جوادك من رأيك أيضاً ولكنه يطأطىء رأسه وأذنيه الى الأرض وقد وقف أمام بوابة الحظيرة ويبدو عليه أنه يفضلها. وكانت عمتي كما لاحظت تحب الجياد وتمنحها عطفها. أما الحمير فلم يكن لها نصيب من هذا العطف.

سوف ينتعش قدراً كافياً بعد قليل، وعقبت عمتي بقولها: إن النزهة تطيب لها نفس سيدة على أية حال. ثم ألقت نظرة سريعة على الأوراق الملقاة على النضد وقالت: آه يا طفلي العزيز أنت تقضي ساعات طيبة هنا فاني لم أفكر قط في الجهد الشاق الذي يتكبده مؤلفو الكتب عند ما أقرؤها فأجبت إن القراءة جهد مذكور. أما الكتابة فلها سحرها وجمالها يا عمتاه.

فأجابت عمتي: آه لقد فهمت، بأن الطموح والرغبة في الاندماج في محيط المجتمع الذي نعيش فيه والتعاطف بين الناس وغير ذلك من الشعور الانساني سوف تكون من خلالك على ما أظن، فوقفت أمامها في تأبد بادٍ وسألتها:

هل تعرفين أكثر من هذا عن صلاتي بآجنس؟ فربتت على كتفي وجلست مكاني على مقعدي ونظرت الى وجهي فترة وجيزة قبل أن تجيب، أظن أني أعرف يا تروت. فسألتها: وهل أنت واثقة مما بنفسك من أثر؟ أظن ذلك يا تروت.

ونظرت اليَّ في جأش رابط نظرة يشوبها الشك أو هي الشفقة بي أو الحيرة من أمري ومما تحمل لي من حب، حفزني هذا السلوك على أن أستجمع قواي فأخفي ما أنا فيه وأبدو منشرح الصدر منبسط الأسارير.

ثم ما هو أكثر من ذلك، يا تروت قالت عمتي نعم! أظن أن آجنس على وشك الزواج.

فأجبت في انشراح ليباركها الله. فأجابت عمتي فليباركها الله هي وزوجها معاً. فرددت ما قالت عمتي وتركتها وهبطت الدرج في خفة واعتليت ظهر جوادي وانطلقت في سبيلي وكان لديَّ عذر أقوى من أي عهد مضى لأنفذ ما عزمت عليه.

إني أذكر هذه النزهة الشتوية بكل خير وفضل، كانت الريح تذرو حبات الجليد المتراكم على نصال الحشائش وتلفح بها وجهي، وكانت ضربات حوافر الجواد الصلبة توقع لحناً جميلاً على الأرض الصلبة التي لا تعمل فيها فأس الفلاح وانزلاق الجليد وهو ينحدر متجمعاً في خفة وسرعة في حفر الطباشير وقد دفعتها دفعاً هيناً ليناً رفيقاً رقيقاً هبات النسيم كما تدفع أوراق الشجر. وقد توقفت على قمة التل عربة الدريس اليابس عن المسير وراحت تنفث خيولها الدخان من أفواهها وأنوفها وتملأ صدورها بالهواء ونواقيها الصغيرة ترن في جرس موسيقي وكانت

المنحدرات ناصعة البياض وأكوام الثرى الرخو تجثم فوقها وسمتها الى السماء المظلمة فتبدو كلوحة مصوَّرة رسمتها يد فنان على صفحة لوح هائل من الأردواز.

وجدت آجنس وحيدة بجانب المدفأة فقد انصرفت الفتيات الصغيرات الى مخادعهنَّ، فلما أبصرت بي داخلاً ألقت الكتاب جانباً وحيتني كعادتها، ثم تناولت سلة شغل الابرة وجلست في احدى النوافذ العتيقة، وجلست بجوارها نتحدث فيما أقوم به من أعمال والمواقيت التي أعمل فيها وعما أحرزت من نجاح منذ زيارتي الأخيرة لهم وقامت آجنس فرحة منبسطة الأسارير وألمعت من خلال ضحكاتها أنني سوف أغدو وشيكاً حجة فيما أتحدث فيه من شئون. قالت آجنس ولذا فاني أنتفع بجل الوقت كما ترى وأتحدث اليك كما يجب.

وبينما أنا أتطلع الى وجهها الجميل وأراقب عملها رفعت عينيها الساذجتين وهما في صفاء الندى المذاب، فرأت أني أخالسها النظرات. إنك ساهم اليوم يا تروت وود!.

آجنس هل آن أن أبوح لك بما يشغل بالي؟ فقد جئت لأفضي لك بدخيلة قلبي. فألقت بعملها جانباً كما اعتادت أن تفعل ونحن نناقش أمراً جادًّا وأصغت اليَّ إصغاءً تامًّا.

هل يخامرك شك في ايمان اخلاصي لك يا عزيزتي آجنس؟ فأجابت لا فأنا كما عهدتني.

هل تذكرين أني ذات مرة عند ما عدت من سفري حاولت أن أكشف لك عن سريرتي؟ أي دين من الشكر يطوق عنقي وأي شعور دافق أشعر به نحوك. فأجابت في رقة إني أذكر ذلك جيداً.

إنك تنطوين على سر فدعيني أقاسمك حمله يا آجنس. فأذبلت عينيها وسرت رعشة في بدنها.

لم يكن في طاقتي يا آجنس أن أعرف الاَّ بعد عناء حتى ولو كانت الشفتان اللتان تفضيان القول الى سمعي هما شفتاك وهذا قد يبدو غريباً. فان كان هناك آخر قد أفضت عليه كنوز حبك الثمينة فلا تحرميني أن أشاركك أمراً يمس سعادتك عن قرب. فاذا كان في مقدورك أن تطامني ثقتك بي كما تقولين وكما أعهد فيك فدعيني أكن لك الصديق أو الأخ في شأنك هذا وفيما عداه من شؤون.

استوت قائمة وغادرت النافذة حيث كانت تأخذ مجلسها وفي عينيها حنين أو العتب وأسرعت الخطا في الغرفة وانطلقت لاتدري الى أين وقد غطت وجهها براحتيها واستخرطت في بكاء مرّ قطع مني شغاف القلب. ورغم ما آلمني بكاؤها فقد أثار الأحاسيس في نفسي وعاد بالأمل الى قلبي ولم أدر لذلك سبباً واختلطت دموعها بابتساماتها الهادئة الحزينة وقد ارتسمت عميقة باقية في ذهني فاهتزت هزَّة الرجاء يحدوني، لا هزَّة الخوف يتهددني، أو رعدة الأسف يضويني.

آجنس عزيزتي ، شقيقتي ، أي جرم أتيت ؟ !

دعني أذهب يا تروت وود فلست على ما يرام اني شخص آخر الآن وسأتحدث اليك فيما ألمعت اليه في وقت آخر سوف أكتب اليك فلا تثقل عليَّ اليوم . لاتحدثني ! لا تحدثني !

فتشت في ذاكرتي عما قد قالت وأنا أتحدث اليها الليلة الماضية وعما اذا كانت في حاجة الى رفيق يلبي نداء قلبها فانفتحت أمامي لا أول لها ولا نهاية أضرب فيها باحثاً عما أريده لأناله في لحظة واحدة .

اني لا أحتمل رؤيتك يا آجنس على هذه الحال المؤلمة والظن يراودني أني مبعثه . فتاتي العزيزة بل درتي الثمينة التي أملك دعيني أقاسمك الهموم في شقائك وإذا كنت في حاجة الى العون أو التضحية فاني أسدي هذه وأقدم تلك واذا قلبك ينوء تحت ثقل حمل فتذريني أخفف من وطأته إذ لمن أعيش يا آجنس اذا لم تكن حياتي ملك يديك ؟ !

كان كل ما تبينته من حديثها « اعفني الآن » ! « فاني شخص آخر » « في غير ذلك الوقت » .

ورحت أناجي نفسي هل كان الحاحي حماقة دفعتني اليها الأثرة فانحرفت عن جادة الصواب أو هو القبس من شعاع الأمل أنار ظلمات نفسي اليائسة فانفتحت مسالك الحياة أمامي ولم أجرؤ على التفكير في السير فيها ؟

يجب الافصاح أكثر مما أبنت فليس بوسعي أن أدعك تتركينني على حالي هذه . استحلفك بحق السموات يا آجنس ألاَّ تدعي كلاًّ منا يخطىء فهم الآخر بعد هذه السنين الطوال وما تخللها من أحداث .

يجب أن أتكلم وأبين فاذا كان برأسك فكر تسعدين به فأبيني عنه فليس بمقدوري أن أتخلى عنك بمحض اختياري لراعٍ غيري وأقنع في عزلتي بدور نظّارة المسرحية يتفرجون على السعداء . أبعدي هذا الفكر عن رأسك فإني لا أستحق موجدة قلبك عليّ لقد قاسيت ولم يكن عبثاً وأنت لم تعلمي بنفاد حبي وصفائه .

هدأت ثائرتها وبعد لحظة قصيرة اتجهت نحوي بوجهها الشاحب وقالت في صوت خفيض منقطع وإن كان واضحاً جليّاً : إني أدين لك بهذا وأرده لنقاء صداقتك لي ياتروت وود ، ولا يراودني تردد في أن أخبرك بأنك مخطىء ولن أزيد ، وإذا احتجت الى العون والمشورة في المستقبل فقد نلتهما منك ، وإذا كنت قد شقيت في وقت ما فقد تحررت الآن من هذا الشقاء ، وإذا كان قد أبهظ كاهلي حمل فقد ألقيت به وتنفست الصعداء ، وإذا كنت أقيم على سر أطويه في فؤادي فلم يعد جديداً عليّ وليس هو ما تحدس به ، وان أستطيع الكشف عنه

أو اقتسامه مع غيري . إنه لي وحدي ويجب أن يظل كذلك .

أرجوك البقاء ! لحظة واحدة يا آجنس إذ همت بالانطلاق في سبيلها ولكني حلت دونها والرحيل وطوقت خصرها بذراعي وقلت « على مر السنين ! » « إنه ليس أمراً جديداً » إن أفكاراً جديدة وآمالا متفتحة كانت تعصف برأسي وتغير الحياة التي أحياها وتلونها بلون جديد :

عزيزتي آجنس : يامن أجل وأكبر ومن أحب بكل جوارحي عند ما جئت إلى منزلك كان في رأسي حلم جميل يداعبني ولذا فان عقبة تحول بيني وبين السر الذي تكتمين لن تكون، لأن في مقدورنا طيه في ذات صدرنا مدى العمر وحتى نشيخ . ولكن يا آجنس إذا كان هناك أمل متفتح أمامي فأدعوك بأكثر من أخت فأنت تختلفين عن الأخت اختلافاً بيناً .

تساقطت دموعها هتانة سريعة ولكنها لم تكن كالتي سكبتها في آخر مرة فرأيت بريقاً من الرجاء يشع خلالها

لقد كنت لي دائماً خير هادٍ وخير نصير إذا كنت قد اهتممت بنفسك أكثر من اهتمامك بي ونحن نرعى طفولتنا سوياً هنا إذاً لتحوّل شغفي بك ولكني لقيت العطف منك دائماً أكثر مما لقيته مني وكان لا بدّ لي منك أغذي بك آمال الصبا وأدفع الخيبة عنها ورغبتي في وجودك بجانبي لتكوني موضع ثقتي وتقيتي التي أدفع بها غائلة الأيام عني ، تملكتني هذه الرغبة فصارت طبيعة ثانية وإني الآن أفسح لحبك من قلبي فيأخذ منه أول وأرفع مكان كما كنت دائماً.

لا زالت تسح الدمع — دمع الفرح لا دمع الحزن — وتعلقت بي في قوة لم أكن لأعهدها فيها من قبل فطوقتها ذراعاي وأنا لا أظن أنها ستضمني بتلك القوى .

عند ما أحببت دورا — وأغرمت بها كما تعلمين يا آجنس ....

نعم وأنا سعيدة بهذه المعرفة .

حتى في ذلك الوقت عندما أحببتها فان حبي كان ناقصاً ما لم يكمله عطفك علينا وقد شملني هذا العطف فلما فقدتها يا آجنس لم تعد حياتي ذات قيمة من غيرك .

زادت التصاقها بي وهي بين ذراعي فزادت قرباً من قلبي وقد وضعت يدها المرتعشة على قلبي وعيناها النديتان بلؤلؤ الدمع تشعان بالبريق من خلاله وهي تنظر الى عيني .

غادرتك وأنا مقيم على حبك يا عزيزتي آجنس وظللت في غربتي مخلصاً لهذا الحب وعدت وأنا له حافظ وحارس :

حاولت حينئذٍ أن أحكي لها عن الصراع الذي خضت غماره والنهاية التي وصلت اليها

وحاولت أن أكشف لها عن دخيلة قلبي وعقلي في صدق وحاولت أن أطلعها على ما كنت أرجو وكيف وصلت الى معرفة نفسي ونفسها وكيف جاهدت لأصل الى هذه النتائج الطيبة وكيف جئت الى ذلك المكان حتى في هذا اليوم وفاءً بهذا الاحساس الذي أحمل وقلت مناجياً نفسي اذا كان في حبها لي ما يحملها على الزواج مني فما هذا لحسن في أو صنيع أتيته عدا ما أحمل لها من حب عميق أنضجته المحن التي جزناها معاً ، فكان الهوى الذي ذقناه . ومن هنا فقد كشفت عنه . أوه يا آجنس إذ في ذلك العهد كان روح زوجي الطفلة تنظر اليها من عينيك تؤمن على مقالنا راضية عن فعالنا فأسلمتني عن طريقة الى ذكريات حلوة رقيقة هي ذكريات الزهرة التي ذوت في كمها .

إني سعيدة يا تروت وود وقلبي مفعم هناءً ولكن لدي شيء واحد يجب أن أفضي به اليك. وماذا عساه يكون يا عزيزتي ؟

فوضعت راحتيها الرقيقتين على كفي ونظرت الى وجهي في هدوء وقالت : ألم تعلم بعد ما هو ؟ اني أخشى التفكير فيما عساه يكون. أخبرني أنت يا عزيزتي. لقد أحببتك طيلة حياتي .

آه لقد كنا سعداء . نعم كنا سعداء ولم تكن الدموع التي ذرفنا في محنتنا جزاءً وفاقاً (وكانت دموعها أغزر من دموعي) على ما كنا قد قاسينا ولكنها دموع السعادة البالغة التي شملتنا ولن تعود الاقدار فتفرق بيننا مرة أخرى .

سرنا معاً في أمسية تلك الليلة الثانية في الحقول وكان الهواء البارد وكأنه يشاركنا السعادة التي ننعم بها والأمن الذي يفعم قلوبنا . وبدأت النجوم الباكرة تتلألأ ونحن نخطو الهوينا ناظرين اليها مسبحين الله شاكرين حمده الذي هدانا الى هذا السكون. ولما لفنا سواد الليل وعدنا كنا نقف معاً في النافذة العتيقة والقمر مشرق وقد تعلقت به عينا آجنس الهادئتان ونظراتي لا تفارقها وامتد الطريق طويلاً أمامي ورحت أسرح الطرف فيه فأبصرت صبيًّا خلِقَ الثياب أجهده المسير الطويل لا أنيس له في وحدته ولا رفيق له في وحشته. وكان يجب أن يعود إليّ ينادي قلبي الذي ينبض بين جنبيّ فهو قلبه . وفي اليوم التالي وقد أوشك وقت العشاء ذهبنا لنقابل عمتي فقالت لنا بيجوتي الخادمة انها قد صعدت الى مكتبي في الطابق العلوي . وكان مما يشبع كبرياءها أن تكون بيجوتي على أهبة الاستعداد لتجيب أوامري وتلبي ندائي فوجدناها وقد وضعت عويناتها وجلست بجوار المدفئة .

« كان الله في عوني » ! قالتها عمتي وهي تطل من خلال الغسق مَنْ عساها تكون تلك الفتاة التي تعود بصحبتك فأجبت أنها آجنس رتبنا أمورنا في بادىء الأمر على ألاَّ نزيح الستار عن هذا الدور فتولت الحيرة عمتي ونظرت اليَّ نظرة ملؤها الأمل والرجاء عندما

قلت « آجنس » ولـكنها لما رأت أن ليس في وجهي ما ينم عن سروري رفعت عويناتها يائسة ودعكت أنفها بها . ورغم ذلك حيت عمتي آجنس في حرارة وسرعان ما أخذنا مكاننا على مائدة العشاء في غرفة الاستقبال المضاءة في الطابق السفلي ووضعت عمتي عويناتها مرتين أو ثلاث مرات لتتلقي عليَّ نظرة أخرى ولـكنها سرعان ما كانت تعود فترفعها . وقد خاب ظنها فتدعك أنفها بها فلم ترق هذه الحركة مستر دك زوج عمتي لأنه كان يعدها فألاً سيئاً. وقلت لها بعد تناول العشاء بهذه المناسبة يا عمتاه لقد كنت أتحدث الى آجنس عما أخبرتني فأجابت لقد أخطأت اذاً يا تروت فلم تف بوعدك بالافضاء اليّ واصطبغ وجهها بلون قرمزي

اني واثق أنك لست غاضبة يا عمتاه ، بل انك لم تغضبي اذا علمت أن آجنس سعيدة بما ارتبطت به . فقالت عمتي هذه وسخر !

فلما ظهرت بمظهر المتضايق المحرج رأيت أن من الخير ألاّ أسترسل في حديثي فأطيل ضيقها فطوقت آجنس بذراعيّ ووقفنا خلف مقعدها وانحنينا عليها فصفقت في شدة ونظرت من خلال منظارها وانتشت بنشوة جنونية من الفرح لم أرها فيها من قبل

لم أستطع أن أكشف في حديثي القصير الأخير مع عمتي إذا كانت قد دبرت هذه المؤامرة الشريفة أو هي حقـاً أخطأها التوفيق في فهم عقليتي فقد كان كافياً أن أخبرتني بأن آجنس على وشك الزفاف وأنا الآن أعرف أكثر من أي شخص آخر مدى صدق ماقالت عمتي.

زففنا بعدذلك بأسبوعين وكان ضيوفنا في عرسنا الهادىء « ترادل » و« صوفيا » ودكتور ومسز استرونج واستأذنا الضيوف الـكرام ونفوسهم تفيض بشراً وسروراً وانطلقنـا في سبيلنا . فلما استقرت بين ذراعيّ وتعلقت بي ضممت ملهمتي وينبوع وحيي الى صدري وكان محور حياتي ومدار نفسي هي زوجي ملك يديّ والتي يقوم حبي لها على صخرة عتيدة .

قالت آجنس . زوجي العزيز : الآن يمكنني أن أدعوك بذلك الاسم إن بنفسي أمراً أريد أن أنهي به اليك . أسمعنيه ياحبيبتي .

لقد نما وترعرع ليلة أن قابلت دورا ربها فهي التي أرسلتك إليَّ نعم لقد بعثت بي اليك وأضفت « لقد أخبرتني أنها تركت لي تراثاً. فأجابت أظننت ماذا كان ذلك التراث فأجبت : إني عرفته لقد شددت الى جانبي الزوجة التي طالما أحبتني ، لقد أخبرتني أن لها رجاء أخير أردت لو أني أحققه فهي تترك بين يدي الوديعة التي أبقت عليها دائماً . . . وقد كانت الوديعة . . . فأجابت وآمل أن أملأ هذا الفراغ .

وألقت آجنس برأسها الصغير على صدري وبكت وبكيت معها ونحن في فيض السعادة.

سليم تاوضروس الاسيوطي

مكتبة المقتطف

فك الأغلال

موطن الداء في التقليد وانعدام التربية الاستقلالية

لحق بالجزء الصادر في غرة شهر يناير الماضي ، من مجلة المقتطف الزاهرة ، بحث ذو جدة وطرافة ، رحب المجال ، مترامي الأطراف ، للاستاذ البحاثة المفكر اسماعيل مظهر ، رئيس تحرير المقتطف ، عنونه بفك الأغلال ، أو بحث في الثقافة التقليدية ، وعلاقتها بالتربية القومية ، دار به وألمَّ بما ثار من اهتمام رجال التعليم عندنا والخبيرين به ، وما عقدوا من مؤتمر أجالوا فيه الرأي ، وتساجلوا فيه البحث ، لبلغوا مقطع الاصلاح فيه والتقويم ، وما أذاعوا من قرارات على انها لباب أبحاثهم ، ومصاص آرائهم . بيد أن الأستاذ مظهر اعتزلهم جميعاً فيما تساجلوه ، ونكب عن نهج ما سلكوه . لقد قصد غير قصدهم ، وصمد الى سمت لم يكونوا مستهدفيه ، بل أتي البيوت من أبوابها ، فتساءل عن الغرض من التعليم ، وعن السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها أبناءنا إذ يتعلمون . فأرانا ، وانه للحق الذي لا مراء فيه أن التعليم الصحيح إنما يكون ويتم بأن نصل بينه وبين الحالات الاجتماعية التي تكتنفنا ، وانه الذي يتصل بثقافتنا التقليدية .

وما كان هذا البحث للأستاذ مظهر ، الذي دلَّ على مصروف جهد ، ومبذول عناية ، ليمر به القارىء مرور العابر الذي لا يوليه لفتة تقدير واستبصار ، ولا يقف عنده وقفة تقدير واستعبار . فانه حقيقٌ بنا ، ونحن في مطلب الاستقلال وملتمس النهوض والرقي ، ان نهش لكل بحث من هذا الضرب ، ونشجع كل ذي قول نافع ، وسعي صالح ناجع . لقد ذقنا ، وحقك ، في هذا البحث طعماً جديداً ، وطعمنا غذاءً مفيداً . إنا الى هذه الأقوال تحن ضلوعنا . والى مثل هذه البحوث تصبو نفوسنا .

نضرب لك مثلاً ، إذ يتكلم عن المتعلمين عندنا ممن تخرجهم مدارسنا ، وكيف فقدوا كل ضروب استقلالهم ، فيقول :

« بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا الى القول بأن كل ما هو أوروبي جميل ، وكل ما هو مصري رديء ، وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوروبية جد ورجولة ، وكل فن مصري بدائي وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوروبي ، مهما كان فيه من بعد وتضاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية ، بل ومع آدابنا المرعية والعرف الانساني ، حضارة وتمدين . وشملت هذه الحال فتياننا وفتياتنا ، فألسنتهم لا تتحرك إلاّ بكل ما هو أوروبي غربي ، وقلوبهم لا تهفو إلاّ لكل ما هو بعيد عن المصرية » .

وإذ يتكلم فيما صار اليه الأدب المصري من شحوب العلة ، وسقم الركاكة وآفة التقليد فيقول :

« ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هذا المجرى ، ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولكثرة ما فيه من صور الأمم الأوربية ، كأنه « عصبة أمم » ولكن في صحف سطرت بكلمات عربية » . وإذ نسمعه يقول :

« وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً لغته العربية وأصولها وآدابها ، غير متصل بآداب دينه ، غير عارف بشيء من تاريخ بلاده ، وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر ، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأي من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم »

لعمرك . هذا قلم يسبر القرح ، ويد تلمس مكمن العلة . ثم هو نطاسي لم يدعك دون وصف العلاج الشافي والدواء المبرىء .

وبعد فقد عجبنا أيما عجب مما أشار اليه الأستاذ مظهر من انه قرأ في العهد الأخير تقريرين عن التعليم في مصر لعالمين أجنبيين ، استقدمتهما وزارة المعارف ، أحدهما انجليزي ، والآخر سويسري ، ليدليا برأيهما في اصلاح التعليم المصري !

يا عجباً ! ما لهذين العالمين الأجنبيين والتعليم في مصر ! أغار معين العلم في هذه الأمة ؟ هل أمست الديار قفراً من عالم عندنا في التعليم ، أو فقيه طَبٍّ في فنون التربية ؟ وماذا بعد هذا ، إذا كنا نقول باننا أهل أم المدن في مشرق الأرض علماً وحضارة ، وليس لدينا عالم في هذا الضرب من المعارف البشرية ؟ وماذا رجاؤك منا اذا كنا ، بعد أن ملأنا أرض مصر مدارس عالية ، وخرّجنا منذ السنين الخوالي العديدة ، وفي كل عام ، العشرات من علماء التعليم ، وخبراء التربية ، فنروح نلتمس عالماً من علماء التربية ، في رقعة من الأرض نائية ، يحمل سراجه بيمينه ليرينا وضح السبيل ؟

لعمرك . ألاّ نبّأتني ما علم هذين العالمين بجوّ مصر ، وهجو مصر ، وحال مصر ، وما

يتلجلج في صدرها، وما همَّ جسمها من سقم، وأذاب لحمها من شجن، وما توحوح منه وتئن، وما ينبض به قلبهـا من خفيات السرائر ، وأشتات اللواعج ؟ ألهما شِركٌ معنا في ما نعاني وما نصرخ منه ؟ وما الذي سوَّى بيننا وبينهم في الحاجة والمطلب ، والمشرب والمذهب ؟

لقد استضعفنا أنفسنا ، حتى صرنا في عيون هؤلاء الأوروبيين كنفالة القدر ، ونفاضة العِكم ، واستقللنا عديدنا ، وزرينا على حاضرنا وماضينا ، حتى استنسروا وصرنا بغاثاً. ياويحنا ! هانت علينا نفوسنا ولم تكرم ، فأصبحنا في كل شيء مقلدين ، وفي كل شيء نقتص آثار أولئك الغربيين ، وفي كل شأن لنـا نستجلبهم ليقضوا فينا قضـاءهم ، ونحتكم اليهم ليبلغوا بنا ، في خاصة أمورنا، المفصل والمقطع ! حتى ولو أكبرونا ، وقالوا أنتم في هذا الاعلون وأنتم عليه قادرون ، وحتى لو أنهم التمسوا أن نخليهم مما زعمنا أن عندهم قضاءه، وبأيديهم نواصيه ، ولهم فيه فصل الخطاب ، بل ولو صارحونا بأنهم منه براء، وبه جاهلون، كما سجل علينا المستر مان أحد هذين العالمين المستجلبين ، في صراحة العالم ذي الفضل ، في تقريره بأنه « يتعذر عليـه أن يلم إلمام المحيط بالحقائق الاساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم » ! .

في عام ١٩٣٢ ، أقامت وزارة المعارف المصرية مؤتمراً للموسيقى . أسمته مؤتمر الموسيقى الشرقي ، ولـكن إن هي إلاّ أسماء سميتموها . لم يكن شرقيًّا إلاّ بالاسم ، إذ دعت اليـه أقطاب علمـاء الموسيقى ، من حيث ذرَّ قرن شمس وغرب ، فوفد علينا منهم الانجليزي ، والفرنسي ، والايطالي ، والالماني ، مع أبناء قرابتنا ، من موسيقى سوريا والمغرب والعراق ومن اليهم ، وقيـل لهم ابحثوا ، فى ما أنتم باحثون ، ما إذا كانت الموسيقى الشرقية تنمو وترتقي بتطعيمها بالموسيقى الغربية أو بخلطها بها خلط السمن بالعسل ! .

انعقد ذلك المؤتمر العجيب في الرابع عشر من مارس ١٩٣٢ ، ومكث الى ابريل من تلك السنة ، وقد كنا من ضمن المشتغلين بالترجمة في ذلك المؤتمر . فهل علمت ما قرروا ، إذ انفض مؤتمرهم ؟ اجتمعت آراؤهم ، وهم ، كما علمت طائفـة من علماء الموسيقى الغربيـة ، على ان الموسيقى الشرقية لها طابعها الخاص ، وكذلك آلاتها ، فليس من الخير في شيء اندماجها في الموسيقى الغربية . لـكلٍ وجهةٌ هو موليها . صبغة هـذه ، الشرق ، وصبغة تلك الغرب . لا ائتلاف بينهما ولا امتزاج . وان الموسيقى الشرقية . عزَّةٌ لها ، وجمال ، وطرب ونخامة أن نصونها من كل خالط ، أنغاماً ، وألحاناً ، وآلات .

ومع ذلك مكث قوم منا لا يحفلون ، وما فتئوا في غمرة ما كانوا فيه يهيمون . خلطوا الموسيقى المصرية الشرقية بمثلها فرنجية ، فابتلوها بالسقم ، وأشاعوا فيها الفساد . تسمع

اليوم أغاني كلها رطانة ، وألحاناً لم تتحاب ولم تتآلف ، من هذا الذي سموه بالجديد ، الصنعة فيه هزيلة ، والطرب عنه ناءٍ بعيد .

الموسيقى الشرقية البحتة ، والمغاني الشرقية الخالصة ، من أهم مزاياها الطرب والاهتزاز ، ولا سيما المصري الذي طبع عليها ، وهي منه في قرارة نفسه ، مغروزة في غرائزه ، والطبع يحن الى ما يفقه ويصبو الى ما لاق به . فأنت لا تسمع لحناً شرقيـّاً صرفاً ، كأن تسمع موشحاً من الموشحات أو « دوراً » من القديم ، لعبده الحمولي أو لمحمد عثمان ، الاَّ ألفيت نفسك حيث مالت أنغامه ، فأنت تميل ، وإذ تهبط فأنت هابط ، وأنى تصعد فأنت صاعد ، سكران مترنحاً وما بك من سكر ، ولـكنه التطريب العجيب .

وهي ذات أثر طبيعي عميق ، فلست إذ تستمع لهـا ، تملك قياد نفسك ، ولا لك الى تهدئة عواطفك وأعصابك من سبيل ، وكأنما هي تولج أصابعها في سويداء القلوب وأغوار الأرواح ، فتعبث بها ، وتروح تقلبها ، وتبسطها ، وتطويها على الهوى .

وهي ذات صنعة ، وفن متين . فالموشح والدور القديم ، ثروة من لطيف الصنعة ، ودقيق التلحين . وهو قطعة من الفن البارع كجلمود صخرٍ حطه السيل من عل ، لا يغنيها الاّ شيخ من شيوخ المغنى ، ولا ينمقه كنوز بدائعها الا قطب من أقطاب الموسيقى ، ولا يجيد انشادها ، ولا يجد سلطاناً على الاطراب بها والجولان في أقطارها ، الاّ فارس ذلك الميدان .

استمع ياسيدي المصري السليم الفطرة ، الى دور مما كان يغنيه عبده الحامولي ، ومحمد عثمان ، ويوسف المنيلاوي ، وعبد الحي حلمي ، وسالم العجوز ، وأضرابهم من فرسان المغنى القديم ، والموسيقى الشرقية غير الهجينة ، ثم استمع الى دور من وضع اليوم ، أو قطعة من تأليف هذا الجديد ، وحدّثني مخلصاً ، أين كان طربك ، ومع أيهما كان ذهابك مع الأنغام كل مذهب ، وأين كنت كالسكران ، وما احتسيت خمراً ؟

بل اسمع أم كلثوم حين تنشدك (وحقك أنت المنى والطلب) مثلاً ، وهي قصيدة مونَقة من الأدب العربي ، وهي فيها مغنية ، كما علمت ، من فوارس الغناء المصري ، واسمعها هي نفسها ، حين تنشدك أي لحن من هذه الألحان الجديدة المحشوة بالأنغام الفرنجية ، مما يؤلفه من أجلها الأستاذ القصبجي ، وانظر ، بصادق الفطرة ، أيهما أنت به مسحور طروب .

واسمع عبد الوهاب ، وهو زعيم المجددين ، وكبير المغرمين بدخيل الأنغام الفرنجية ، اسمعه حين يلعب بلبك ، ويستطير فؤادك ، وهو ينشد لك قصيدة (تعاليْ نفن نفسينا غراماً) ثم اسمعه في أي دور أو لحن من جديده الذي أغرق في وضعه وغالى ، وقل لي بحقك ، من هو المغني المطرب المبدع ، والفارس ذو الـكر والفر ، أعبد الوهاب في قديمه ، أم عبد الوهاب في هذا الجديد ؟

كل دائنا . يا سيدي القارىء الكريم، في ضعف التربية الاستقلالية عندنا ، وفي المبادرة الى التقليد، وهناً وهواناً. فرمينا بهذا الذي سموه تجديداً، تجديداً في الموسيقى ، والأدب، والفن وأمور أخرى ، تراه كالرقعة في الثوب ، تزري به ولا تصلحه . فالتجديد في الموسيقى ، إن هو إلاّ أنغام فرنجية بمقدار الثلاثة الارباع ، وأنغام مصرية شرقية بمقدار الربع ، خرّجوا منها لك خليطاً عجيباً . جديدهم هذا قد أفسد روح الموسيقى الشرقية ، والمغاني العربية ، فأضعف سلطانها على النفوس ، وتراكض اليها كل مسترخ المُنه ، فاتر الهمة ، يستقرب الموارد ، ويستدني المطالب . وينفر من السعي والكد .

ومثله ما زعموا من هذا التجديد في الأدب ، كلما أخذ العجز كاتباً منا بكظمه ، وضعضع لبَّه بلادته واسترخاؤه ، وكلما ألفى الأدب الصحيح الصريح يتطلب منه الاجتهاد ، ككل كاتب وأديب في أدب لغته من كتاب الغرب ، واضطره الى إمعان البحث في كتب اللغة ، وبسطة العلم بأساليب الكلام العربي المبين ، وطول الكد في استيعاب فنون الأدب ، ثم يكون قد ألمَّ بلغة منَ لغات الغرب ، قد استهوته وأسرت لبه ، هرول اليها يخلط أساليبها بأساليب العربية ، وأقبل يخاطبنا بمذق عجيب ، وخلط مريب ، ثم يلطم به وجوهنا على انه تجديد !.

بالأمس الغابر سمعت إحدى الكاتبات الانجليزيات ، وقد طوّفت بالأحياء الوطنية : الأزهر وسيدنا الحسين ونظائرهما ، فشاهدت بعض الأبنية من اللواتي أكل الدهر عليها وشرب ، وبعض رسوم واطلال باقيات كوشم اليدين مما بنى السلف ، وفيه جمال وزخرف واتقان ، فنال منها الغيظ ، ومعضها الألم أن تجد مصلحة تنظيم مصر ، تفتح شوارع جديدة ، فلا تبقي على تلك الآثار ولا تذر ، فكتبت في جريدة الاهرام الغراء تقول في لهفة الغصّان : « إذا كنتم ترومون أن تحيا القاهرة في صورة عاصمة من عواصم أوروبا ، فماذا نأبي نشاهد في بلادكم ؟ وإذا كان الزائر الأوروبي ينتقل من شارع في بلاده الى شارع مثله في بلادكم ، فان زيارته أولى به . ان لكل بلد تقاليده وآثاره ، فما لكم تطمسون معالمها ، فاذا أنتم لا تاريخ لكم ولا شأن ممتاز ؟ »

وضعت مدام دي ستال الكاتبة الفرنسية النابغة في القرن التاسع عشر ، كتاباً عن المانيا نقتطف منه هذه العبارة ، وهي جديرة بأن نختتم بها قولنا ، قالت :

« القوة الحقيقية لشعب ما ، كامنة في فطرته التي فطره الله عليها . وتقليد الأجنبي ، أيًّا كان ، وكيفما كان ، مضعف لوطنيته ، مذهب لكرامته »

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أحمد أبو الخضر منسي

فهرس

الجزء الثالث من المجلد الثامن بعد المائة

١٤٥ التعليم ومراميه : كيف نفك الأغلال وننطلق في سماء الحرية : اسماعيل مظهر
١٤٩ خطاب المدح في القرآن الكريم : منصور رجب
١٥٣ قصر الأخيضر بالعراق وحصن عين التمر : مصطفى جواد
١٦٨ التأله : بحث لغوي تاريخي
١٦٩ صفحة مطوية من تراث العرب العلمي : أديب سليم خوري
١٧٣ كيف تحفظ صحتك : لا تتعب : فهمي عطا الله
١٧٤ العلم والفلسفة : وديع فلسطين
١٧٨ الطيور : بحث لغوي علمي
١٧٩ السيطرة على القنبلة الذرية : نقولا الحداد
١٨٩ دون جوان العرب : عمر بن أبي ربيعة (قصة) : محمد فهمي
٢٠٤ ديوان التفتيش : بحث لغوي تاريخي
٢٠٥ أحدث المستكشفات التي أسفرت عنها الحرب العالمية : عوض جندي
٢١٠ علم الحيوان : بحث لغوي علمي
٢١١ آجنس : تشارلز ديكنز (قصة) : ترجمة سليم تاوضروس الاسيوطي
٢١٩ مكتبة المقتطف * فك الأغلال موطن الداء في التقليد وانعدام التربية الاستقلالية : احمد ابو الخضر منسي

لحق بالقتطف

١ — ٦٤ الفريد ده موسيه . شاعر الحياة والألم : بقلم صلاح الدين الشريف.